من بلاد شنقيط إلى المدينة المنورة وأثره الثقافي

مسارات رحلة حج العلامة محمد الأمين الشنقيطي

(١٣١٥هـ - ١٣٩٣هـ)

أبو الحسن علي السماني*

المقدمة :

جاء اختياري لرحلة طريق حج العلامة محمد الأمين الجكني الشنقيطي نظراً لما تعبر عنه هذه الرحلة من جوانب مشرقة في التبادل المعرفي ، والتلاقح الثقافي، والتقارب الوجداني، والاندماج الاجتماعي بين مجموعة السكان على طول المنطقة.

حيث تناول في كتابة القيم هذه الرحلة من مدينة شنقيط حتى وصوله أرض الحرمين الشريفين، وحجه وزيارته للمدينة المنورة.

تناولت الدراسة في جانبها الجغرافي بوصف الرحلة والمواضع التي يمرّ بها الحجيج من أقصى بلاد غرب إفريقيا في شنقيط وما حولها، عبر أقطار السافنا الإفريقية في نطاق أراضٍ يزيد طولها عن ٣٢٠٠ كم تمتد من المحيط الأطلسي غرباً حتى البحر الأحمر شرقاً عند سواكن، بل يتعدى البحر إلى أرض الحجاز والحرمين الشريفين. ثم بيّنت الدراسة الآثار العلمية والثقافية على السكان المحليين الذين يمرَّ بهم الحجيج جيئة وذهاباً بهذا الطريق من مبتداه إلى منتهاه.

ولا شك أن هناك آثاراً أخرى لطريق الحج الأفريقي، ذلك أن الحج إلى بيت الله الحرام وإن كان هدفه الأساس هو العبادة وأداء الشعيرة، إلا أن هناك المنافع الأخرى بالإضافة إلى ما ذكرنا من التبادل الثقافي والمعرفي فهناك الاختلاط الاجتماعي بين المجموعات السكانية، والمنافع التجارية، والتأثير السياسي أيضاً.

قال عز من قائل: (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) (١)الآية.

---

* مدير مكتب مؤتمر العالم الإسلامي بالسودان

(١) سورة الحج، الآية: ٢٨.

وفي أدبيات الحج هناك نماذج من أدب الرحلات سجلها ودونها العلماء من الحجاج الأفارقة الذين سبقوا العلامة محمد الأمين الشنقيطي بالحج والتدوين ذلك أنه حج في العام ١٣٦٧هـ.

ولعل أشهر العلماء الذين دونوا رحلاتهم قبل هذا التاريخ العالم الحاج أحمد المصطفى بن طوير الجنة بين (١٢٥٠-١٢٥٤هـ). كذلك رحلة الشيخ محمد يحيى بن محمد المختار الولاتي (ت: ١٣٣٠هـ) في كتابه (الرحلة الحجازية).

ورحلات أخرى أقل ذيوعاً من السابقة دونها الكتّاب مشافهة عن أصحابها، منها كتاب روايات رحلة الحج بمكة، لعالم فولاني (١٢٠٨هـ /١٧٩٤م) وهو مخطوط، وكتاب (حج عالم سوداني ١٩٣٠م، بالإضافة إلى رحلات أخرى مدونة.

هذا بالإضافة إلى الرحلات السلطانية، وأشهرها رحلة الحاج منسا موسى (٧٢٤هـ) ورحلة الملك ماي علي بن الحاج عمر (ت ١٦٨٠م) إلى الحج خمس مرات. وهي مخطوطة[١].

جاءت هذه الدراسة في مباحث شملت التعريف ببلاد شنقيط. ترجمة العلامة محمد الأمين الشنقيطي، والمواضع على طريق الحج من شنقيط إلى الحجاز، وبعض مظاهر الثقافة المتناقلة على طريق الحج الإفريقي، وسرد مختصر المسائل التي أجاب عنها الشيخ محمد الأمين في طريق الحج، وأخيرا الخاتمة.

وقد قمت برصد المواضع التي مَرَّ عليها صاحب الرحلة موضعاً موضعاً، وأكملت توقيع هذه المواضع على الخريطة مستعيناً في ذلك بعدد من الخرائط حديثها وقديمها مع أن توقيعي المواضع لا يخلو من اجتهاد شخصي بنته على تقديرات موضوعية بما تيسّر لي من معرفة البلاد وجغرافيتها.

كما حصرت أسماء الشخصيات التي ورد ذكرها في الرحلة، وغالب من ذكرهم الشيخ في رحلته هم من الذين سألوه المسائل العلمية، وهؤلاء من أهل العلم وطلبته وخاصته، لذلك لم يأت ذكر لغير هذه الطبقة في أدب الرحلة إلا قليلاً مما استدعته الحكاية الرواية.

---

(١) انظر آدم بمبا، مجلة الحج والعمرة، العدد (١٠) وزارة الحج السعودية، شوال ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م. ص (٤٨) مقال: مكة المكرمة والحج في الأدب الإفريقي.

ولاحظت أن المسائل التي اطرحت على صاحب الرحلة مسائل ذات صبغة تخصصية دقيقة خاصة فيما يتعلق بعلم المنطق والكلام، وقد أدهشتني إجابات الشيخ –رحمه الله– خاصة وهو لم يدرس علم المنطق إلا بالمطالعة الشخصية، فهو من العلوم التي لم يأخذها على المشايخ.

ثم إن أساتذة وطلاب معهد أم درمان العلمي كانوا على مستوى من تجويد العلوم نفتقر إلى مثله في الكثير من جامعاتنا وكلياتنا الشرعية الآن فالله المستعان.

ولولا خوف الإطالة والإملال لم أختصر حرفاً مما دونه الشيخ في رحلته المباركة إلا أن الضرورة، ورجاء الالتزام بمراد الدراسة وغرضها حملاني على هذا الصيغ، ثم إن كتاب الرحلة مطبوع، يمكن للمستزيد أن يطلع عليه في أصله.

هذا والله أسأل أن ينزل على ضريح الشيخ محمد الأمين الشنقيطي شأبيب رحمته، وأن يجعل الجنة مثواه إنه جواد كريم رحيم.

أولا: ترجمة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي صاحب رحلة الحج

ترجمة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي صاحب رحلة الحج[1].

هو محمد الأمين وهو علم مركب من اسمين، وذكر محمد تبركاً.

واللقب: آبا. بمد الهمزة وتشديد الباء من الإباء.

واسم أبيه: محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدى أحمد بن المختار من أولاد أولاد الطالب أوبك وهذا من أولاد أولاد كرير بن الموافي بن يعقوب بن جاكن الأبر، جد القبيلة الكبيرة المشهورة المعروفة بالجكنيين. ويُعرفون بتجكانت.

نسب القبيلة: يرجع نسب هذه القبيلة إلى حمير. كما قال الشاعر الموريتاني محمد فال ولد العينين مستدلاً بفصاحتهم على عروبتهم:

إنا بنو حسن دلت فصاحتنا أنا إلى العرب الأقحاح ننسب

---

(١) مختصرة من ترجمة الشيخ عطية مُحَمَّد سالم في مفتتح تفسير أضواء البيان، الجزء الأول الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

إن لم تقم بينات أننا عرب ففي (اللسان) بيان أننا عرب

انظـــر إلى مالنا من كل قافية لها تذم شذور الزبرج القشب

المولد: ولد رحمه الله في عام ١٣١٥هـ.

الموطن: كان مسقط رأسه رحمه الله عند ماء يسمى (تَنْبه) من أعمال مديرية (كيفا) من القطر المسمى بشنقيط وهو دولة موريتانيا الإسلامية الآن.

علماً بأن كلمة شنقيط كانت ولا تزال اسماً لقرية من أعمال مديرية أطار في أقصى موريتانيا في الشمال الغربي.

نشأته رحمه الله: وقبل الحديث عن نشأته يحسن إيجاز نبذة عن البيئة في تلك البلاد.

تعدُّ الحياة الاجتماعية في تلك البلاد بحسب المواطنين قسمين: عرب وعجم والعربية لغة الجميع.

وقبيلة الجكنيين خاصة بين طلب العلم، وفروسية القتال. مع عفة عن أموال الناس، وفي هذا الجو كان طلب العلم على قدم وساق سواء في حلهم أو ترحالهم، كما قال بعض مشايخهم العلامة المختار بن بونا:

ونحن ركب من الأشراف منتظم

أجل ذا العصر قدراً دون أدنانـا

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة

بها نبين دين الله تبيانـــــا

أما كرم الطبع فهذا سجية في جميعهم وأمر يشب فيه الصغير، ويشيب عليه الكبير وقد ألفوا الضيف لنجعة منازلهم.

وفي هذا الجو وتلك البيئة نشأ رحمه الله كما سمعته يقول: توفي والدي وأنا صغير أقرأ في جزء عمَّ، وترك لي ثروة من الحيوان والمال، وكانت سكناي في بيت أخوالي وأمي ابنة عم أبى، وحفظت القرآن على خالي عبد الله بن محمد المختار بن إبراهيم بن أحمد نوح جد الأب المتقدم.

طلبه للعلم: حفظ القرآن في بيت أخواله على خاله عبد الله كما تقدم، وعمره عشر سنوات.

قال رحمه الله: ثم تعلمت رسم المصحف العثماني (المصحف الإمام) عن ابن خالي سيدي محمد بن أحمد بن محمد المختار، وقرأت عليه التجويد في مقرأ نافع برواية ورش من طريق أبي يعقوب الأزرق وقالون من رواية أبي نشيط، وأخذت عنه سنداً بذلك إلى النبي ﷺ وذلك وعمره ست عشرة سنة

أنواع الدراسة في القرآن: تُعد في علوم القرآن منهجاً متكاملاً لا تقتصر على الحفظ والأداء، بل تتناول معرفة رسم المصحف أي نوع كتابته ما كان موصولاً أو مفصولاً، وما رسم فيه المد أو كان يمد بدون وجود حرف المد، وقد يكون حرفاً صغيراً أو نحو ذلك.

ثم ضبط ما فيه من منشأيه في الرسم أو التلاوة. ومن المشهور عندهم في هذا رجز (محمد بن بوجه) المشهور المعروف بالبحر، تعرض فيه لكل كلمة جاءت في القرآن مرة واحدة أو مرتين أو ثلاث مرات إلى سبع وعشرين مرة أي من الكلمات المشتبهة، وأفرد كل عدد بفصل فمثلا: كلمة (أعينهم) بالرفع جاءت ثلاث مرات قال فيها:

أعينهم بالرفع من غير حضور من بعد كانت وتولت وتدور

ومن الثنائي: كلمة (الأشياع) بالعين قال فيه:

أشياع بالعين فهل من مدكر في سبإ من قبل بأنهم ذكر

وقد درس هذا كله في طفولته، وكانت له زيادة نظم على ذلك تذييلا لزيادة الفائدة، كما قال: على البيت الأخير مبيناً حركاته وإعرابه:

في سورة القمر خاطب وانصبا وجره وغيبنه في ســـبا

أي في سورة القمر تكون تلاوتها الخطاب والنصب (ولقد أهلكنا أشياعكم) فهل من مدكر.

وفي سورة سبأ تكون تلاوتها بالغيبة والجر (كما فعل بأشياعهم) وهذه دراسة لا تكاد توجد إلا ما شاء الله، وهي من المهام العلمية لحفظها رسم القرآن من التغيير والتبديل وهي من آثار تعهد الله بحفظ القرآن المنزل من عنده سبحانه.

ثم قال رحمه الله: وفي أثناء هذه القراءة درست بعض المختصرات في فقه مالك كرجز الشيخ ابن عاشر، وفي أثنائها أيضاً درست دراسة واسعة في الأدب على زوجة

خالي أم ولد الخال أي أن ولد خاله يعلمه العلوم الخاصة بالقرآن، وأمه تعلمه الأدب، قال: أخذت فيها مبادئ النحو كالأجرومية وتمرينات ودروس واسعة في أنساب العرب وأيامهم، والسيرة النبوية، ونظم الغزوات لأحمد البدوي الشنقيطي وهو يزيد على ٥٠٠ بيت وشروحه لابن أخت المؤلف المعروف بحماد، ونظم عمود النسب للمؤلف وهو يعد بالآلاف وشرحه لابن أخته المذكور على خصوص العدنانيين، لأنه مات قبل شرح ما يتعلق بالقحطانيين.

أما بقية الفنون فقال:

١- أولاً: الفقه المالكي، وهو المذهب السائد في البلاد درست مختصر خليل بدأ دراسته فيه على الشيخ محمد بن صالح إلى قسم العبادات، ثم درس عليه النصف من ألفية ابن مالك. ثم أخذ بقية الفنون على مشايخ متعددة، في فنون مختلفة، وكلهم من الجكنيين.

قال رحمه الله: وقد أخذنا عن هؤلاء المشايخ كل الفنون: النحو، والصرف، والأصول، والبلاغة. وبعض التفسير والحديث.

أما المنطق وآداب البحث والمناظرة فقد حصلناه بالمطالعة.

الشعر:

ومع الشاعرية الرقراقة والمعاني العذاب الفياضة والأسلوب السهل الجزل، فقد كان يتباعد رحمه الله عن قول الشعر مع وفرة حفظه إياه، وله في ذلك أبيات يقول فيها:

أنقذت من داء الهوى بعــلاج شيب يزين مفارقي كالتاج
قد صدني حلم الأكابر عن لمى شفة الفتاة الطفلة المغنــاج
ماء الشبيبة زارع في صدرها رمانتي روض كحق العــاج
وكأنها قد أدرجت في برقــع يا ويلتاه بها شعاع ســـراج
وكأنما شمس الأصيل مذابة تنساب فوق جبينهـا الوهـاج
يعلى لموقع جنبها في حذرها فوق الحشية ناعم الديبــاج
لم يبك عيني بين حي جيرة شدوا المطي بأنسع الأحـداج
نادت بأنغام اللحون حداتهم فتزيلوا والليل أليــل داجــي

لا تصطبيني[1] عاتق في دلَّها رقت فراقت في رقــاق زجـاج
مخضوبة منها بنان مديرها إذ لم تكــن مقتـولة بمـزاج

طابت نفوس الشرب حيث أدارها
رشأ رمى بلحــاظ طـرف ســاجي
أو ذات عود أنطقت أوتارها بلحون قول للقلوب شواجــي
فتخال رنات المثاني أحرفا قد رددت في الحلق من مهتاج

وقد سألته رحمه الله عن تركه الشعر مع قدرته عليه وإجادته فيه: فقال: لم أره من صفات الأفاضل وخشيت أن أشتهر به، وتذكرت قول الشافعي فيما ينسب إليه:

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيــد

ولأن الشاعر يقول في كل مجال، والشعر أكذبه أعذبه. فلم أكثر منه لذلك.

أعماله في البلاد: كانت أعماله رحمه الله كعمل أمثاله من العلماء: الدرس والفتيا، ولكنه كان قد اشتهر بالقضاء وبالفراسة فيه ورغم وجود الحاكم الفرنسي إلا أن المواطنين كانوا عظيمي الثقة فيه فيأتونه للقضاء بينهم ويفدون إليه من أماكن بعيدة أو حيث يكون نازلاً.

خروجه من بلاده رحمه الله: كان خروجه من بلاده لأداء فريضة الحج وعلى نية العودة وكان سفره براً، كتب فيه رحلة ضمنها مباحث جليلة كان آخرها مبحث القضايا الموجهة في المنطق مع علماء أم درمان بالمعهد العلمي بالسودان.

وبعد وصوله إلى هذه البلاد تجددت نية بقائه ولعل من الخير وبيان الواقع ذكر سبب بقائه: لقد كان في بلاده كغيره يسمع الدعاية ضد هذه البلاد باسم الوهابية، إلا أن بعض الصدف قد تغير من وجهات النظر (وإذا أراد الله أمراً هيأ له الأسباب) ومن عجيب الصدف أن ينزل رحمه الله في بعض منازل الحج بجوار خيمة الأمير خالد السديري دون أن يعرف أحدهما الآخر، وكان الأمير خالد يبحث مع جلسائه بيتاً في الأدب وهو ذواقة أديب وامتد الحديث إلى أن سألوا الشيخ لعله يشاركهم فوجدوا بحراً

(١) أي لا تستميلني ولعل الصواب: لا تستبيني.

لا ساحل له، ومن تلك الجلسة وذاك المنزل تعدلت الفكرة بل كانت تلك الخيمة بداية منطلق لفكرة جديدة، وأوصاه الأمير إن هو قدم المدينة أن يلتقي بالشيخين الشيخ عبد الله الزاحم رحمه الله، والشيخ عبد العزيز بن صالح حفظه الله[1].

وفي المدينة التقى بهما رحمه الله. وكان صريحاً معهما فيما يسمع عن البلاد، وكانا حكيمين فيما يعرضان عليه، ما عليه أهل هذه البلاد من مذهب في الفقه، ومنهج في العقيدة. وكان أكثرهما مباحثة معه فضيلة عبد العزيز بن صالح.

وأخيراً قدَّم للشيخ كتاب المغني كأصل للمذهب وبعض كتب شيخ الإسلام كمنهج للعقيدة، فقرأها الشيخ وتعددت اللقاءات وطالت الجلسات فوجد الشيخ مذهباً معلوماً لإمام جليل من أئمة أهل السنة وسلف الأمة أحمد بن حنبل رحمه الله.

كما وجد منهجاً سليماً لعقيدة السلف تعتمد الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة، فذهب زيف الدعايات الباطلة، وظهر معدن الحقيقية الصحيحة، وتوطدت العلاقة بين الطرفين، وتجددت رغبة متبادلة في بقائه لإفادة المسلمين.

وكان جلوس الشيخ، رحمه الله، للتدريس في المسجد النبوي امتداداً لما كان قبله مع من كان من العلماء بالمسجد النبوي آنذاك من تلاميذ الشيخ الطيب وغيرهم. وكان درس الشيخ في التفسير وختم القرآن مرتين.

منهجه في درسه: من المعلوم أن التفسير لا ينحصر في موضوع فهو شامل عام بشمول القرآن وعمومه، فكان المنهج أولاً بيان المفردات ثم الإعراب والتصريف ثم البلاغة مع إيراد الشواهد على ما يورد.

ثم يأتي إلى الأحكام إن كان موضوع الآية فقهاً، فيستقصي باستنتاج الحكم وبيان الأقوال والترجيح لما يظهر له. ويدعم ذلك بالأصول وبيان القرآن وعلوم القرآن من عام وخاص ومطلق ومقيد وناسخ ومنسوخ وأسباب نزول وغير ذلك.

وإذا كانت الآية في قصص أظهر العبر من القصة وبين تاريخها وقد يربط الحاضر بالماضي كربط تكشف النساء اليوم بفتنة إبليس لحواء في الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما وفتنته للجاهلية حتى طافوا بالبيت عرايا رجالاً ونساء وها هو

---

(١) كانت هذه الترجمة قبل وفاة الشيخ عبد العزيز.

يستدرجهن في التكشف شيئاً فشيئاً. بدأ بكشف الوجه ثم الرأس ثم الذراعين الخ. فكان أسلوباً علمياً وتربوياً في آن واحد، كما كان أحكاماً وحكماً.

وقد يستطرد للقاعدة بمبحث للقاعدة بمبحث كامل كما استطرد في الرد على ابن حزم في رده القياس بإتيانه بأنواعه عند قوله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وقد طبع في نهاية مذكرة الأصول تعميماً للفائدة. وبهذا الشمول والاستقصاء لم يكن يترك مجالاً لسؤال ولم يبق لذي حاجة تساؤلاً.

فكان نفعه رحمه الله في المسجد النبوي المقيم والقادم للقاصي والداني نفعاً عظيماً.

ثانياً: في سنة ١٣٧١هـ افتتحت الإدارة العامة بالرياض معهداً علمياً، تلاه عدة معاهد وكليتا الشريعة واللغة.

واختير للتدريس في المعهد والكليتين نخبة من العلماء من داخل وخارج المملكة. وكان رحمه الله ممن اختير لذلك فتولى تدريس التفسير والأصول إلى حين افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة.

في مسجد الشيخ: وفي مسجد الشيخ محمد رحمه الله بدأ درس الأصول لكبار الطلبة في قواعد الأصول، حضره العامة والخاصة وكان يتوافد إليه من أطراف الرياض، وكان الشيخ عبد الرحمن الإفريقي رحمه الله يدرس الحديث وكان درس الأصول بمثابة فتح جديد في هذا الفن.

في بيته رحمه الله: ولما كان الدرس في الأصول في المسجد عاماً وفي الطلبة من خواصهم رغبوا في درس خاص في بيته رحمه الله، فكان لهم درس خاص بعد العصر. وكان بيته رحمه الله كمدرسة لأبنائه رافقوه للدراسة عليه وقد أملى شرحاً على مراقي السعود في بيته على أخينا أحمد الأحمد الشنقيطي.

لقد كان لتدريسه هذا سواء رسمياً في المعهد والكليتين أو في المسجد، أو في المنزل له أثر طيب ونتائج حسنة لا يسع متحدثاً التحدث عنها بقدر ما تحدثت هي عن نفسها في أعمال كافة المتخرجين من تلك المعاهد والكليتين المنتشرين في أنحاء المملكة المبرزين في أعمالهم وفي أعلى مناصب في كافة الوزارات.

قد امتد نشاطه خارج المملكة: إذ كانت الجامعة الإسلامية قد فتحت للبلاد نوافذ تطل منها على العالم الإسلامي كله، وجعلت من حق أولئك الأبناء ما يجب من رعايتهم وحق تلك الأقطار ما يلزم من تقويم أواصر الروابط. فكانت فكرة إرسال بعثات إلى الأقطار الإسلامية وخاصة إفريقيا، فكان رحمه الله على رأس بعثة الجامعة إلى عشر دول أفريقية بدأت بالسودان، وانتهت بموريتانيا موطن الشيخ رحمه الله.

في هيئة كبار العلماء: وكما شكلت هيئة كبار العلماء بعد سماحة المفتي رحمه الله، وهي أكبر هيئة علمية في البلاد. كان رحمه الله أحد أعضائها. وقد ترأس إحدى دوراتها فكانت له السياسة الرشيدة والنتائج الحميدة. سمعت فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح حفظه الله وهو عضو فيها يقول: ما رأيت قبله أحسن إدارة منه مع بُعد نظر في الأمور، وحسن تدبر للعواقب.

في الرابطة: وفي رابطة العالم الإسلامي كان عضو المجلس التأسيسي، ولم تقلّ خدماته فيه عن خدماته في غيرها.

مؤلفاته رحمه الله: لا شك أن كل مؤلف يحكي شخصية مؤلفه في علمه وفي عقله بل وفي اتجاهه كما قالوا: من ألف فقد استهدف، أي لأنه يعرض ما عنده على أنظار الناس. وللشيخ تآليف عديدة منها في بلاده ومنها هنا. فما كان في بلاده هو:

١- في أنساب العرب نظماً ألفه قبل البلوغ يقول في أوله:

سميته بخالص الجمـــان في ذكر أنساب بني عدنان

وبعد البلوغ دفنه قال لأنه كان على نية التفوق على الأقران، وقد لامه مشايخه على دفنه وقالوا: كان من الممكن تحويل النية وتحسينها.

٢- رجز في فروع مذهب مالك يختص بالعقود من البيوع والرهون وهو آلاف متعددة قال في أوله:

الحمد لله الذي قد ندبا لأن نميز البيع عن لبس الربا

ومن بالمؤلفين كتبـــاً تترك أطواد الجهالة هبـــا

تكشف عن عين الفؤاد الحجبا

إذا حجاب دون علـم ضربـــــا

٣-ألفية في المنطق -أولها:

حمداً لمن أظهر للعقـــول حقائق المنقول والمعقـــول
وكشف الرين عن الأذهـان بواضح الدليـل والبرهـان
وفتح الأبواب للألبـــاب حتى استبانت ما وراء الباب

٤-نظم في الفرائض:

أولها:

تركة الميت بعد الخامـــس من خمسة محصورة عن سادس
وحصرها في الخمسة استقراء وانبذ لحصر العقل بالعـــراء
أولها الحقوق بالأعيـــان تعلقت كالرهن أو كالجاني
وكزكاة التمر والحبـــوب إن مات بعد زمن الوجـــوب

وكل هذه المؤلفات مخطوطة.

أما مؤلفاته هنا فهي:

١- منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز. وموضوعها إبطال إجراء المجاز في آيات الأسماء والصفات وإبقائها على الحقيقة.

وقد زاد هذا المعنى فيما بعد آداب البحث والمناظرة.

٢- دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، أبان فيه مواضع ما يشبه التعارض في القرآن كله كما في قوله تعالى (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ) مع قوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ) وأن السؤال متنوع والمواقف متعددة.

٣- مذكرة الأصول على روضة الناظر: جمع في شرحها أصول الحنابلة والمالكية وبالتالي الشافعية.

٤- أداب البحث والمناظرة: أوضح فيه آداب البحث من إيراد المسائل وبيان الدليل ونحو ذلك.

٥- أضواء البيان لتفسير القرآن بالقرآن: وهو مدرسة كاملة يتحدث عن نفسه، وصل فيه رحمه الله إلى نهاية (قد سمع). ومن عجيب الصدف أن يكون موقفه رحمه الله في التفسير على قوله تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...) الآية. المجادلة: ٢٢.

وهنا العديد من المحاضرات ذات المواضيع المستقلة طبعت كلها ونفدت، وهي:

١- آيات الصفات: أوضح فيها تحقيق إثبات صفات الله.

٢-حكمة التشريع: عالج فيها العديد من حكمة التشريع في كثير من أحكامه.

٣-المثل العليا: بين فيها المثالية في العقيدة والتشريع والأخلاق.

٤- المصالح المرسلة: بين فيها ضابط استعمالها بين الإفراط والتفريط.

٥- حول شبهة الرقيق: رفع اللبس عن ادعاء استرقاق الإسلام للأحرار.

٦- على اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ألقاها بحضرة الملك محمد الخامس عند زيارته للمدينة. وكلها عامة نافعة جديدة.

وبالتالي فقد كان لمنهجه العلمي في أبحاثه وتدريسه وفي مؤلفاته إحياء لعلوم درست وتصحيحاً لمفاهيم اختلفت.

فمما أحيا من العلوم علم الأصول الذي هو أصل الاستدلال والاستنباط. والاجتهاد والترجيح وعمدة المجتهد وعماده وبجهله لا يحق الاجتهاد ويجب التقليد المحض. كما يقولون: جهلة الأصول عوام العلماء: ففتح أبوابه وسهّل صعابه وأوضح قواعده، وقرب تناوله تسهيلاً لأخذ الأحكام من مصادرها ورد الفروع إلى أصولها.

كما أحيا آداب البحث والمناظرة فوضع منهجه وألف مقرره فكان خدمة للعقيدة في أسلوب بيانها، وكيفية إثباتها والدفاع عنها وطرق الإقناع بما فيه الخلاف.

كما فتح أبواباً جديدة وأحدث فنوناً طريفة في علوم القرآن من منع المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز، إثباتاً لمعاني آيات الصفات على حقيقتها وسد باب تعطيلها عن دلالتها إجراء للنص على حقيقة وإبقاء عليه في دلالته.

ومن دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب وبيان تصديق آي الكتاب بعضه بعضاً بدون تعارض ولا إشكال.

ومن تسليط أضواء البيان على تفسير القرآن بالقرآن رسم فيه المنهج السليم لتفسير القرآن الكريم. تفسير كلام الله بعضه ببعض، وأبان أحكامه وحكمه وفتح كنوزه وأخرج نفائسه ونشر دره على طلبة العلم.

وكل ذلك فتح جديد في علوم القرآن لم يكن موجوداً على هذا النسق من قبل، ولم يكن يدرس بهذا المثل.

كما أنه في غضونها صحح مفاهيم مختلفة منها أن المنطق لم يكن يُعرف عنه إلا أنه تقديم العقل على النقل ومصادمة النص بالرأي، وكان فعلاً وسيلة التشكيك في العقيدة باستخدام قضايا عقيمة. فهذَّب الشيخ رحمه الله من أبحاثه وأحسن باستخدامه فنظم قضاياه المنتجة ورتب أشكاله السليمة واستخدام قياسه في الإلزام. سواء في العقيدة أو أصول الأحكام، وبعد أن كان يستخدم ضدها أصبح يعمل في خدمتها. كما وضح ذلك في آداب البحث والمناظرة.

توفي ضحى يوم الخمس ١٣٩٣/١٢/١٧هـ وكانت وفاته بمكة المكرمة مرجعه من الحج، ودفن بمقبرة المعلاة وصلى عليه سماحة رئيس الجامعة الإسلامية فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في الحرم المكي، مع من حضر من المسلمين بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم.

وفي ليلة الأحد ١٢/٢٠ أقيمت عليه صلاة الغائب بالمسجد النبوي وصلى عليه صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح آل صالح إمام وخطيب المسجد النبوي ورئيس الدائرة الشرعية بالمدينة، ومحاكم منطقة المدينة بعد صلاة العشاء مباشرة، وصلى عليه من حضر من الحجاج مالا يُحصى عدداً[١].

المبحث الثاني:

الإسلام والجغرافيا في موريتانيا

بدأت طلائع الفتح الإسلامي تصل إلى أراضي موريتانيا الحالية في منتصف القرن الأول الهجري على يد القائد الإسلامي عقبة بن نافع الذي قاد جيوش الفتح الإسلامي لشمالي أفريقيا في عهد معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد رضي الله عنهما. وتدل بعض الروايات التاريخية أن عقبة لما أدرك البحر توغل جنوباً فاتحاً تلك البلاد حتى وصل بلاد السوس الأقصى (جنوب المغرب) ثم واصل فتحه حتى وصل إلى (ولاته) الواقعة في الجزء الجنوبي الشرقي في موريتانيا الحالية (النحوي، ١٩٨٧م: ٣٠). وبذلك يكون عقبة بن نافع أول من فتح الطريق للإسلام للتغلغل في هذه البلاد

(١) الشيخ عطية مُحَمَّد سالم. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الجزء الأول، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

سواء عن طريق الفتح أو تسهيل حركة التجار المسلمين الذين أخذوا يتوغلون جنوباً للتجارة ونشر الإسلام.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) سار موسى بن نصير على خطى سلفه عقبة وواصل الفتح نحو الجنوب فأخضع القبائل البربرية وقربهم إليه فحسن إسلامهم، وعملوا معه على نشر الإسلام فخلت بلاد شنقيط من كل ديانة عدا الإسلام (محمود، ١٩٦٣م: ٢١٢، خطاب، ١٩٧٨م: ٢٣١-٢٣٥). وفي فترة لاحقة عمل عبد الرحمن بن حبيب الفهري، حفيد عقبة بن نافع، والذي ولي القيروان (١٢٧-١٣٢هـ) على حفر سلسلة من الآبار على الطرق الصحراوية بين شمال أفريقيا وواحة أودغشت في قلب موريتانيا (غلاب، ١٩٧٩م: ٤٤٩)، وبذلك فتح طريقاً آخر لنشر الإسلام في القبائل الموجودة في هذه المناطق كما فتح للتجار طريقاً جديداً للحركة ونشر الإسلام إلى غربي أفريقي. وقد ساعد على انتشار الإسلام في هذه المناطق طبيعة القبائل البدوية التي كانت تقطنها من العرب والبربر، فقد كان لترحالها الدائم، خاصة حركتهم الدائبة نحو الجنوب، أثر كبير في نشر الإسلام هذه المناطق وما وراءها من بلاد غرب أفريقيا.

ثم عرفت الأراضي التي تشغلها اليوم موريتانيا عبر التاريخ بعدد من الأسماء بعضها كان خاصاً ببعض مناطقها وبعضها كان شاملاً لمعظم أراضي الدولة الحالية، وبعضها الآخر كان يمتد ليشمل أراضياً أخرى إلى الشمال أو الجنوب منها. ولعل أشهر هذه الأسماء موريتانيا، وبلاد شنقيط، وصحراء الملمين، وبلاد التكرور. كما كانت هذه البلاد جزءاً من عدد من الممالك والدول التي فرضت سيطرتها على أجزاء كبيرة من غربي إفريقيا مثل ممالك (غانة) و (مالي) و (سنغاي) الأفريقية، ودولة المرابطين الإسلامية.

وموريتانيا اسم لم يختره أهلها، ولا هو الاسم العربي الإسلامي لهذه البلاد بل هو اسم قديم قدم سيطرة الرومان على أفريقيا وبناء إمبراطوريتهم في شمالي أفريقيا في القرن السادس الميلادي، والتي امتدت من شمال السنغال إلى النيل. وكان هؤلاء هم من أطلق على سكان أفريقيا الشمالية اسم (مور) بمعنى (أسمر) وأطلقوا على بلادهم اسم (موريتانية) أي أرض الرجال السمر (النجم، ١٩٦٦م: ١١). وفي عهد

الإمبراطور (كلوديو) قسمت هذه الأراضي إلى ثلاثة أقسام كان أحدها يحمل اسم موريتانيا الطنجسية (نسبة إلى طنجة) وكان يشمل بالإضافة إلى أراضي موريتانيا الحالية أجزاء من أراضي المملكة المغربية الحالية (غلاب، ١٩٧٩م: ٤٤٧).

وعندما عم الإسلام بلاد شمالي إفريقيا، ومنها أراضي موريتانيا الحالية، أطلق على هذه البلاد أسماء أخرى أهمها (شنقيط) و (بلاد البيضان) وظلت هذه الأسماء متداولة حتى بداية الاستعمار الفرنسي لهذه البلاد في مطلع هذا القرن الميلادي. بل إن الحاكم الفرنسي كان يطلق على ما كان يعرف اليوم بموريتانيا اسم (أرض البيضان) في مكاتباته للحكومة الفرنسية حتى عام ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م عندما اقترح على الحكومة الفرنسية إطلاق اسم موريتانيا على (تراب البيضان) فصدر أمرها على إطلاق هذا الاسم على الرقعة الممتدة بين خاي وتمبكتو شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً ونهر السنغال جنوباً وجنوب المغرب والجزائر شمالاً، ثم عادوا وحوروا في الخريطة فاقتطعوا منها وأضافوا إليها لضرورات أمنية وإدارية (النحوى، ١٩٨٧م: ٢٤-٢٥). وفي عام ١٩٥٧م أعلنت هذه البلاد جمهورية وحملت اسم جمهورية موريتانيا الإسلامية (حميده، ١٩٩٠م: ٧٤)، ثم ثبت هذا الاسم بعد أن نالت البلاد استقلالها في جمادي الآخرة ١٣٨٠هـ (٢٨ نوفمبر ١٩٦٠م).

أما اسم (شنقيط) فهو اسم إسلامي عربي عريق شاع استخدامه للدلالة على هذه البلاد منذ القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي) وظل يستخدم للدلالة على هذه البلاد حتى وقت قريب. بل إن كثيراً من أبناء هذه البلاد، والكتاب منهم على وجه الخصوص، لا زالوا يصرون على استخدام هذا اللفظ للدلالة على بلادهم. وشنقيط في الأصل هو اسم لبلدة نشأت في منطقة أدرار في وسط البلاد في عام ٥١٧هـ (١١٢٣م) ثم أعيد بناؤها في عام ٦٦١هـ (١٢٦٢م) لتكون مركزاً حضارياً وسوقاً تجارية (قاسم والعقاد، ١٩٨٧م: ٤). ولكنها لم تلبث أن نمت وتطورت واشتهرت بشهرة علمائها الذين نبغوا في مختلف مجالات العلوم الدينية والعربية، كما اشتهروا بتوثيق صلتهم بعلماء المشرق، خاصة في مصر والحجاز. كما كثر الذين يفدون من هذه البلدة إلى الأراضي المقدسة لطلب العلم ولأداء فريضة الحج، حتى غدا الركب الذي يصاحبهم يعرف بالركب الشنقيطي لأن كثرته الغالبة إنما هي من أهل شنقيط

(شاكر، ١٩٦٥م: ٦). ومع الشهرة الواسعة التي اكتسبتها هذه المدينة بشهرة علمائها أصبح اسمها علماً يطلق على معظم ما يعرف اليوم بموريتانيا، وذلك من باب تسمية الكل باسم بعضه.

بالإضافة إلى هذين الاسمين موريتانيا- بلاد شنقيط) اللذين اشتهرت بهما البلاد قديماً وحديثاً، هناك -كما أسلفنا- عدد من الأسماء الأقل شهرة. ومن هذه الأسماء (صحراء الملثمين) الذي عرفت به البلاد في قرون الإسلام الأولى، نسبة إلى قبائل صنهاجة، وهم أهل لثام، وكانوا يقطنون هذه البلاد في صدر الإسلام وأسسوا لهم دولة عرفت باسمهم واستمرت لعدة قرون. كما أطلق بلاد (التكرور) على هذه البلاد في فترات سابقة، وقامت لهم دولة إسلامية عرفت باسمهم وهي (مملكة التكرور الإسلامية) وتحالفت مع المرابطين في هذه البلاد منذ منتصف القرن الخامس الهجري (النحوي، ١٩٨٧م: ٢١-٢٢).

السكان:

يتألف المجتمع الموريتاني من الناحية السلالية والعرقية من ثلاث مجموعات سكانية رئيسة هم الزنوج والبربر والعرب. وقد أسهمت عوامل متعددة في تكوين ملامح المجتمع الموريتاني وتركيبته السلالية، أهم هذه العوامل هي الموقع ودخول الإسلام ونزوح القبائل العربية إلى هذه البلاد. فموقع البلاد بين العالَمين الزنجي في الجنوب والسلالات القوقازية في الشمال كان أحد العوامل الرئيسة التي أدت إلى أن يكون سكان هذه البلاد خليطاً متمازجاً من هذه العناصر البشرية المتعددة وأن يكون حلقة وصل سكانية بين هذه الجماعات. كما أن دخول الإسلام إلى هذه البلاد كان أهم الأحداث التي أثرت في تركيبة السكان العرقية حيث تبع ذلك هجرة أعداد كبيرة من العرب إلى هذه البلاد ليصبحوا في الوقت الحاضر أبرز المجموعات السكانية. ثم إن الإسلام الذي يقرر أنه لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى قد ساعد من ناحية أخرى على تزاوج هذه الجماعات البشرية وامتزاجها مع بعضها حتى لا تكاد تجد اليوم جماعات نقية لم تتأثر بالجماعات الأخرى.

وإذا ما حاولنا أن نتتبع التاريخ السلالي للمجتمع الموريتاني فإننا نجد أن سكان البلاد مع بداية العصر التاريخي كانوا يتألفون عرقياً من مجموعتين رئيستين هما

البربر القدماء في المناطق الشمالية، والمجموعات الزنجية في المناطق الجنوبية، وكان الفريقان يتنازعان السيطرة على الصحراء تبعاً لتغير موازين القوى بينهما (عفيفي،؟: ٧٩-٨٠). ولم يحدث تغيير يذكر على التركيب السلالي للسكان خلال العصور التالية حتى تاريخ الفتح الإسلامي لهذه البلاد في النصف الثاني من القرن الهجري الأول (٦٤هـ). فقد صاحب الفتح قدوم العرب إلى هذه البلاد فاتحين، ثم بعد ذلك مهاجرين ليستقروا في هذه البلاد ويكونوا أبرز المجموعات السكانية في الوقت الحاضر. والجدير بالذكر أن دخول الإسلام إلى هذه البلاد وإسلام القبائل البربرية قد أدى إلى أن تُقْبل هذه القبائل على تعلم اللغة العربية، والاختلاط مع القبائل العربية وتشاركها لغتها ودينها وكثيراً من عاداتها الاجتماعية [١].

(١) د. فوزان بن عبد الرحمن الفوزان: الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، المجلد (١١) إقليم الصحراء الكبرى، موريتانيا، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، الرياض. ص ٥٤٤و ٦٠٥-٦٠٦.

خريطة توضح مراكز العمران الرئيسية

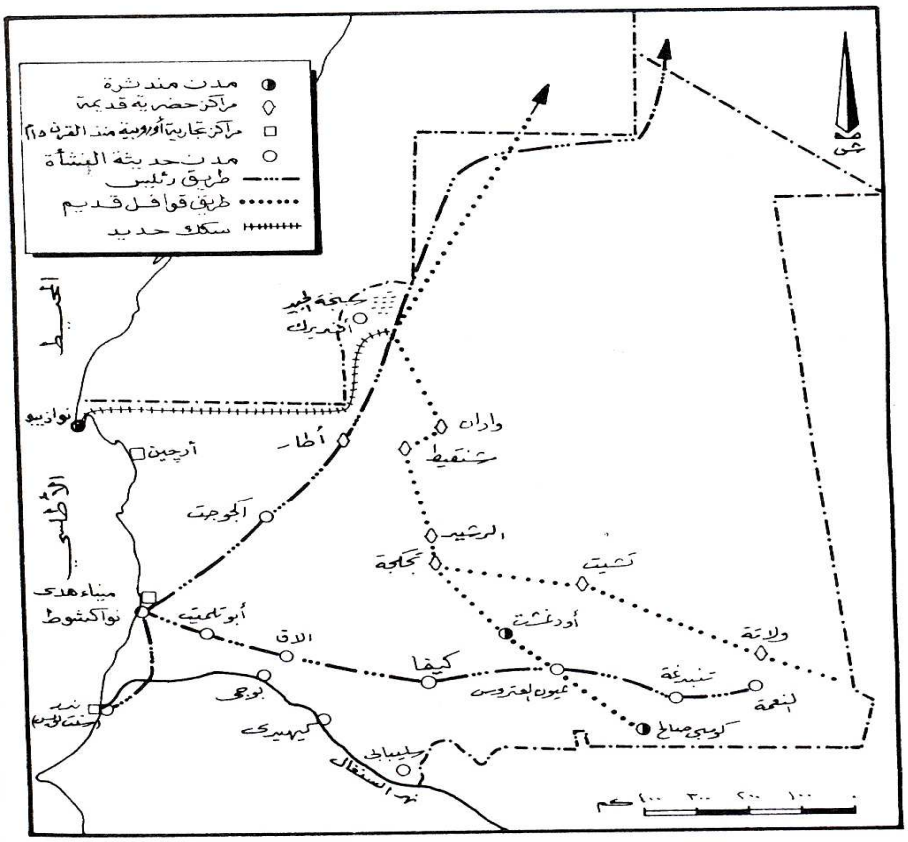

شكل (١١) مراكز العمران الرئيسة

المصدر: محمد بياه محمد ناصر (١٩٨٤) - مدينة نواكشوط - دراسة في الجغرافيا الحضرية. رسالة ماجستير غير منشورة - قسم الجغرافيا - جامعة الملك سعود - الرياض: ص٤١

خريطة توضح شبكة النقل والمواصلات

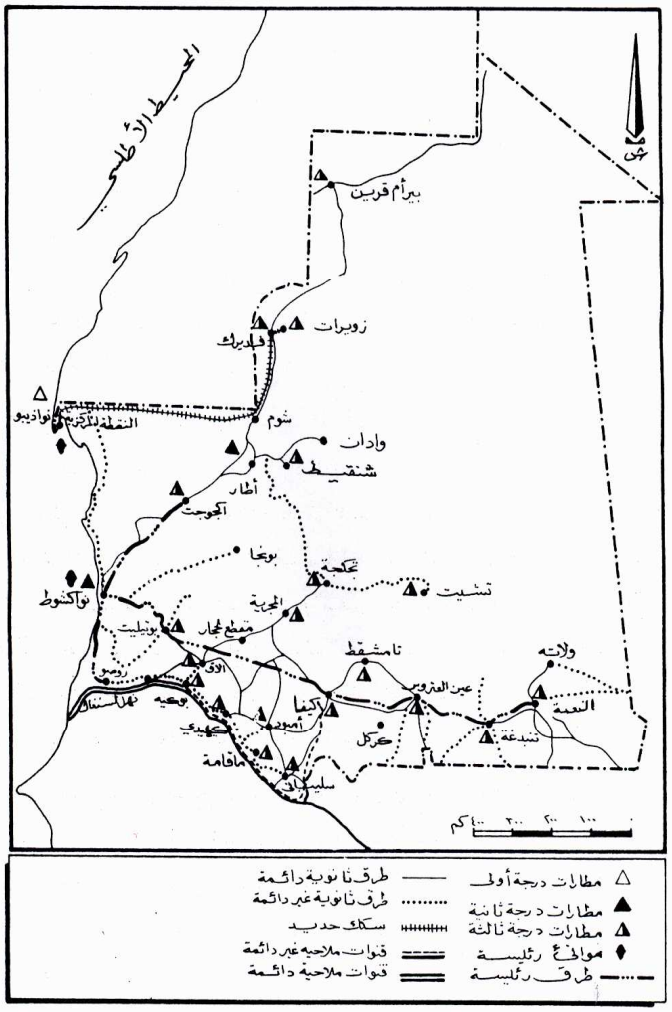

شكل (١٦) شبكة النقل والمواصلات

المصدر: المؤسسة العربية لضمان الاستثمار (١٩٨٥م) دليل المستثمر في الجمهورية الإسلامية الموريتانية: ص٢٦ (بتصرف).

خريطة توضح الكثافة السكانية حسب المحافظات

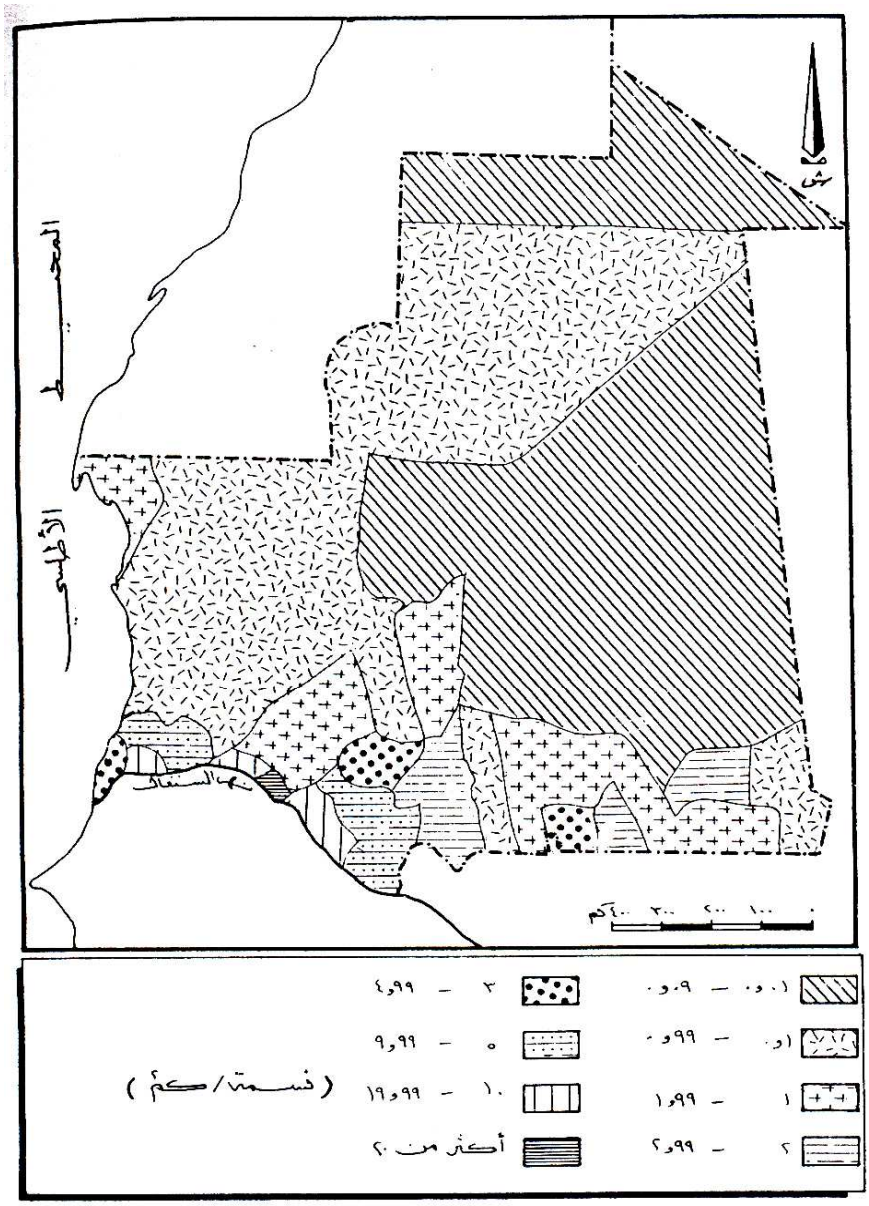

شكل (٩) الكثافة السكانية حسب المحافظات

المصدر: مبنية على بيانات رقمية من:
وزارة المالية والاقتصاد الموريتانية: نتائج إحصاء السكان لعام ١٩٧٧ م- صفحات متعددة.

بعض الملامح الثقافية لطريق الحج الإفريقي:

أشرنا إلى آثار رحلة الحج على طول الطريق من غربي إفريقيا إلى المشاعر المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

ولعلنا نستعرض في إيجاز بعض ملامح الآثار الثقافية لطريق الحج من خلال بعض رحلات الحج التاريخية التي كان لها أثر كبير وشهرة واسعة في تاريخ الحج الإفريقي.

رحلة حج منسا موسى:

كان منسا موسى من أبرز وأعظم السلاطين في السودان الغربي ، وأكثرهم عسكراً، وأشدهم بأساً، وأعظمهم مالاً، وأحسنهم حالاً، وأقهرهم للأعداء، وأقدرهم على إفاضة النعماء، وكان من المصلحين الفاتحين. وصفه ابن خلدون بأنه (كان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تؤثر عنه)، ولم يكن في ملوك السودان مثله في العدل والصلاح، فقد فاق الجميع عدلاً وصلاحاً. وصفه الذهبي بأنه (فقيه مالكي). وكان سخياً جواداً، واشتهر بالكرم والعطاء ولاسيما على علماء المسلمين. وقد ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق، افتتح الكثير من البلاد، وقام بدور كبير ومهم في نشر الإسلام بين الوثنيين في المناطق المجاورة لبلاده[1].

لم يكن منسا موسى أول من حج من ملوك وسلاطين السودان الغربي، وإنما سبقه عدد من ملوكهم منهم برمندانة ومنسا ولى بن مارى جاطة الذي قام بأداء فريضة الحج مروراً بالقاهرة في عصر سلطنة الظاهر بيبرس.

وممن حج أيضاً مواليهم ويدعى سيكرة (وقيل ساكورة أو ساكبورة) وكان قد تغلب على الملك، واستولى على العرش وقوى سلطانه واتسع نطاق ملكه، وغلب على كثير من البلاد المجاورة. وكان مروره بمصر سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م في طريقه لأداء الحج أثناء ولاية الناصر محمد بن قلاوون الثانية.

---

(١) دكتور مُحَمَّد عبد العال أحمد: منسا موسى سلطان التكرور ورحلة حجه الشهيرة، الإسكندرية، مركز الدلتا للطباعة، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م. ص ٢١.

وخرج على رأس ركب حجه من عاصمة بلاده سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م إلى مدينة ولاتهومنها إلى مدينة توات. وقيل إن الركب اتجه بعد ذلك شمالاً إلى تونس ومنها إلى مصر.

وكان مَنْسا قد أعد لنفقته منذ خروجه من بلاده، مائة حمل من التبر، في كل حمل منها ثلاثة قناطير من الذهب. وقد قوبل عند وصوله إلى مصر، بما يليق به من الاحترام والتقدير.

وذكر ابن حجر أنه (قدم للخزانة السلطانية شيئاً كثيراً من التبر المعدني الذي لم يُصنع وغير ذلك، وقال المقريزى: (إن هداياه كانت جليلة وذهبه كان كثيراً). وكذلك ذكر العمرى، أنه قَدَّم حملاً من التبر، وقد قدرت قيمة ما قدمه من الذهب بأربعين ألف دينار وقدرها ابن خلدون بخمسين ألفاً، وربما أضاف ابن خلدون المبلغ الذي أهداه منسا موسى على نائب السلطنة، فقد ذكر ابن كثير أنه أهدى نائب السلطنة نحو عشرة آلاف دينار وتحف كثيرة.

لقد عم السلطان موسى الجميع بعطاياه، وأفاض بمصر فيض الإحسان (ولم يَدَعْ أميراً مقرّباً ولا رب وظيفة سلطانية حتى وصله بجملة من الذهب).

ومن ناحية أخرى، فقد نشطت الحركة التجارية في أسواق القاهرة أثناء وجود مَنْسا موسى لدرجة لم يسبق لها مثيل، واستغل التجار تلك الفرصة وغالوا في أثمان مبيعاتهم نتيجة لإقبال أتباعه على الشراء بالذهب، بحيث كان الثوب أو الإزار الذي لا يساوي أكثر من دينار يباع بخمسة دنانير[١].

وفي عام ١٤٩٧م قام (آسكيا محمد) بن ابي بكر الطوري ملك (صُنْغي) التي ورثت دولة (مالي)، بالحج إلى بيت الله الحرام، واصطحب معه ٥٠٠ فارس وألف جندي، وحمل معه ٣٠٠.٠٠٠ مثقال من الذهب. وكان من أسباب حجه أن يحصل على اعتراف شرعي من الخليفة العباسي. ويذكر السعدي أنه في الأرض المباركة (مصر موطن الخلافة العباسية آنذاك) لقي الخليفة العباسي، وطلب منه أن يجعله خليفة في أرض (صُنْغى)، ففعل وألبسه قلنسوة وعمامة من عنده، فكان خليفة الإسلام

(١) المرجع السابق ص ٣٩-٤٣.

(شلبي، ١٩٨٣م: ٢٦٥-٢٦٦). وأثناء وجوده في مكة استقبله شريفها من أسرة الحسنيين استقبالاً كريماً، ومنحه لقب خليفة أيضاً. (مؤنس، ١٩٨٧م: ٣٧٥) [١].

ومن ملوك (البرنو) و(كانم) الذين أدوا فريضة الحج الملك "إدريس ألوما" الذي حكم في النصف الأخير من القرن السادس عشر (١٥٧١-١٦٠٣م) فقد ذهب المذكور إلى الحج، وبنى في مكة المكرمة مقراً لحجاج (البرنو). ويذكر المؤرخون أن وفود حجاج بيت الله من (برنو) و (كانم) كانوا يمرون بمصر في طريقهم إلى الأراضي المقدسة، وكانت قوافلهم تمضي فترات قصيرة أو طويلة بأرض النيل، وتوضح لنا مراجع التاريخ رحلات قام بها سلاطين برنو مارين بمصر وما أنفقوه عن سعة بأرض الحجاز وأرض النيل (شلبي: ١٩٨٣م ص ٢٩٩).

وحج من ملوك (باجرمي) السلطان "محمد الأمين" الذي يعد عصره هو العصر الذهبي لأمارة (باجرمي)، وقد كان ذلك في نهاية القرن الثامن عشر. ومن المرجح أن حجه كان عبر قافلة الحج التقليدية التي كانت تعبر أفريقيا الغربية باتجاه الشمال إلى مصر ثم على الديار الحجازية.

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي بدأت معظم أقطار غربي ووسط وشمال أفريقيا تسقط تباعاً بيد الاستعمار. وأصبح الأوربيون يهددون المعابر والطرق الموصلة بين غربي ووسط أفريقيا[٢].

لكن بالرغم من ضغوط المستعمر على طريق الحج، وسعيه في وضع العراقيل في هذا الطريق إلا أن حركة الحجيج استمرت في ديمومتها، وظل الأثر الثقافي المتناقل بين أجزاء الطريق قائماً بل وظل الاندماج الاجتماعي، والأثر الاقتصادي

---

(١) يقول شلبي: "يبدو أن أسكيا مُحَمَّد أراد أن يزيل من أذهان الناس، ما تركته رحلة منسا موسى من خيال وعظمة، فبالغ في عطاياه وكرمه ويذكر السعدي أنه تصدق في الحرمين بمائة ألف مثقال من الذهب. واشترى بساتين في المدينة المنورة حبسها على أهل تكرور واشترى هدايا وسلعاً بمائة ألف". (شلبي، ١٩٨٣: ٢٦٦).

(٢) انظر مجلة دار الملك عبد العزيز، عدد محرم/ ربيع الثاني ١٤٢١هـ يوليو ٢٠٠٠م، مقال: رحلة الحج البرية، أ.د: مُحَمَّد محمود السرياني ص ١٩٧.

لهذه الطريق مستمراً بين المجموعات السكانية في كل مناحي ودروب ومسالك حزام السافنا.

وكانت من أهم دوافع الاستيطان والاستقرار بل والترحال، هذه الدوافع:

١- الانقطاع للعبادة والمجاورة بالحرم المكي أو بالمدينة المنورة.

٢- طلب العلم والتفقه على أيدى علماء في سائر البلاد الإسلامية.

٣- الدافع الاقتصادي للتجارة والكسب، والعيش الأفضل.

وكان العاملان الأولان هما أساس الهجرة والاستيطان وحركة السكان، ثم ظهر العامل الثالث في منتصف القرن العشرين. لكن ظل الأثر الثقافي والتواصل العلمي بين الشعوب الإسلامية الإفريقية من خلال رحلة الحج هو التأثير الأبرز في منظومة المؤثرات، فقد تسنى لكثير من الحجاج المقيمين بالبلاد الناطقة بالعربية مثل السودان النيلي، وأرض الحجاز معرفة اللغة العربية بصورة أفضل، هذا بالنسبة للأفراد العاديين من غير العلماء أو طلبه العلم.

ففي بعض الأمثلة على التبادل الثقافي، وأثر الحج في تنمية المعارف والعلوم لدى الأفارقة ذكر الدكتور (هارون ميغا) طرفاً من جهود هؤلاء العلماء والأثر الذي تركوه في مناطقهم بعد أوبتهم من حجهم.

يقول: في مجال الإصلاح العقدي على مذهب أهل السنّة والجماعة الذي كان يقوم به بعض هؤلاء الحجاج والذي لم يتوقف أثره على غرب أفريقيا بل شمل المغرب، نجد رسالة سودانيّة بعنوان: (شكاية الدين المحمدي على رعاية الموكلين به) بدأ صاحبها كتابتها على ظهر سفينة قرب جبل طارق وهو يتجه إلى مدينة فاس في عودته من الحجّ عن طريق البحر (انتهى من كتابتها عصر الأحد ١٥ رجب ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م)، فقد وجّه هذه الرسالة إلى سلطان المغرب أبي الربيع سليمان بن سيدي محمد بن عبد الله (ت ١٢٢٨هـ، ١٨٢٢م) ذي الجهود الكبيرة في الإصلاح العقدي على مذهب السلف في المغرب، يشكو له فيها ما يقترفه بحّارة وحمّالون من شمال أفريقيا على السفن من بدع شنيعة وخرافات، في القرن التاسع عشر الميلادي.

أمّا مؤلّف الرسالة فقد عرّف نفسه بأنّه: أحمد بن القاضي أبي بكر بن يوسف بن إبراهيم، الفوتي أصلاً، الدَّوْجَقِي مولداً، التُّنبُكتاوي أُفقاً، الجَنَّاوي قرارة.

والشيخ محمود باه (ت ١٩٧٨م) مؤسس مدارس الفلاح بمدينة جوول في موريتانيا، وفي مالي بمدينة كاي عام ١٩٤٦م، وتعدّ أوّل مدرسة إسلاميّة عربيّة نظاميّة أهليّة، ولها فروع في السنغال. درس في مدرسة الفلاح، والصولتيّة في مكّة، وأرسل الدفعة الأولى من خرّيجي مدرسته في كاي إلى الأزهر، وقد عانوا من تتبع الاستعمار الفرنسي لهم، ومحاولته إعادتهم بذرائع مختلفة.

وفي ساحل العاج: (تِيُكورو كماتي) (ت ١٩٥٦م) من قرية مَرَبا محافظة {BORTO}منطقة بُوَاكي، غادر بلاده عام ١٩٤٠م للحج عبر السودان، ثم جاور في مكة خمس سنوات درس خلالها كتباً في التوحيد والحديث والتفسير، ولما عاد عام ١٩٤٦م إلى بواكي كان له جهد عظيم في بداية الحركة السنّيّة المعاصرة في هذه المدينة. كما واجه صعوبات ومضايقات عدّة نتج عن بعضها سجنه بأمر الحاكم الفرنسي (رماديه Ramadier) واكتسب في الوقت نفسه أعواناً أبرزهم الحاج كوتوالما درامي، الذي أسس أوّل مسجد لأهل السنّة في هذه المدينة عام ١٨٩٩م. وكذلك رفاقه في لجنة أهل السنّة.

ومن العاجيين: الحاج ياوُ كُونْ (ت ١٩٨٣م) وهو ممن تأثروا بالحاج تيوكور السابق ذكره، حجّ عام ١٩٤٨م وعاد إلى بلده عام ١٩٥٠م، لكنّه قرر- بعد وفاة شيخه- العودة إلى مكة للدراسة، حيث مكث فيها بين عامي ١٩٥٩- ١٩٦٧م، ولمّا عاد استقر في العاصمة ابيدجان، واختير عام ١٩٧٤م ليكون رئيساً لجمعيّة أهل السنّة العاجيّة (A.M.O.C.I).

والشيخ موري موسى كمارا (ت ١٩٧٦م)-من الماليين الذين عاشوا في ساحل العاج- مؤسس مدرسة دار الحديث عام ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠، في مدينة بُوَاكيْ، الذي يُعدّ من أبرز دعاة الحركة السنّيّة الحديثة، ونهضة التعليم الإسلاميّ العربي المعاصر في ساحل العاج وما جاورها من دول. وهو من خرّيجي حلقات التعليم في الحرمين الشريفين، وبخاصة مدرسة الفلاح في مكة. عاد عام ١٩٥٧م إلى مالي فواجهته مشكلات وصعوبات عدّة حالت دون الاستقرار فيه، فهاجر إلى مدينة بواكي بساحل العاج عام ١٩٥٨م، وقام بالدعوة والتعليم فيها، وعُيّن بعدُ إماماً لمسجد أهل السنّة، وامتدّت دعوته الإصلاحيّة إلى الدول المجاورة.

وأمّا الأثر العلميّ والديني لمدرسته دار الحديث فقد شملت أبناء ساحل العاج، ومالي، وبوركينا فاسو، وغينيا، وليبريا، والنيجر، وغانا، ونيجيريا، وسيراليون، والسنغال، وموريتانيا. حتى إنّ عدداً من علماء هذه الدول المعاصرين، وخرّيجيها في الجامعات الإسلاميّة ممن درسوا في مدرسته المذكورة، ومن بينهم مجموعة من حملة الدكتوراة والماجستير في الشريعة والدراسات الإسلاميّة واللغة العربية –وكاتب هذه السطور ممن درس فيها عامي ١٩٧٦–١٩٧٨م فكان لمدينة بُواكي–بفضل الله ثم بفضل هذه المدرسة وفروعها وجهود مؤسسها وتلاميذه المنتشرين في كلّ دول غرب أفريقيا–القدحُ المعلّى في الحركة الإصلاحيّة والنهضة العلميّة في معظم الدول السابق ذكرُها.

تطورت المدرسة كثيراً بعد وفاة مؤسسها على يد الشيخ الصبورالخلوق محمد محمد إدريس توري، من منطقة غاو، في مالي، خريج كليّة الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة عام ١٣٩١هـ درّس في هذه المدرسة، ثم تولّى إدارتها منذ عام ١٩٧٧م–ولا يزال–وتشمل المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية، ولها عشرة فروع في مدينة بواكي، وخمسون فرعاً في قرى ومدن مختلفة من ساحل العاج، يغلب عليها طور الابتدائية ثم المتوسطة. وقد كان للشيخ محمد جهود عظيمة في الدعوة والتعليم، تمثلت في التدريس بالمدرسة وإدارتها، وتنقلات دعوية، ورأب الصدع وفضّ النزاعات بين المسلمين في مدينة بواكي وغيرها.

ومنهم الحاج مافيكابا دياكيتي، وهو من غينيا كوناكري، هاجر إلى ساحل العاج، وبذل جهداً كبيراً في الحركة السنيّة في منطقة مانْ، بين عامي ١٩٥٢–١٩٥٧م والحاج أمادو فكابا ديَاكيتي رئيس فرع الجمعيّة السنّيّة العاجية التي تأسست عام ١٩٧٧م، والحاج كابيني جاني، من غينيا –أيضاً– مؤلّف كتاب: تعليم الصلاة بالعربيّة والفرنسيّة، المنتشر جداً والذي طبع عدةً طبعات. والحاج كونان بيكان أبو بكر الذي أسس عام ١٩٥٩م المسجد الكبير للسنّة في حيّ الاستقلال بالعاصمة أبيدجان، وقد تعاقب على الإمامة فيه جماعة من الدعاة.

وفي مالي: نذكر منهم: الشيخ محمد عبد الله المالي المدني، من الطوارق (ت ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م) كان إماماً في المسجد النبوي أوائل عهد الملك عبد العزيز، وسافر

إلى الهند واليمن وشرق أفريقيا، ثم عاد إلى المنطقة وبدأ دعوته عام ١٣٥٧هـ وقام بنشر عقيدة السلف، وله فضل كبير في توجيه الشيخ المحدّث حماد الأنصاري، والشيخ إسماعيل الأنصاري –رحمهما الله– إلى بلاد الحرمين.

ومن الماليين الذين تخرجوا في حلقات العلم في الحرمين: أحمد حماه الله يتابار، (ت ١٩٨٥م) الذي أسس عام ١٩٥٨م مدرسة الثقافة الإسلامية نواة مدرسته المعروفة –حالياً– بالمعهد الإسلامي في بماكو.

والحاج أحمد جاكيتي (ت ١٩٩٥م) مؤسس مدرسة دار الحديث في كيبا، ويعقوب نعم كمارى الكولي (ت ١٩٩٤م) والحاج محمد عبد القادر المعروف بالحاج مودي دوكوري، مؤسس مدرسة دار القرآن والحديث في طوبا، وقد تخرّجوا عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م في مدرسة دار الحديث والعلوم الشرعيّة بالمدينة المنوّرة.

ومن الماليين –أيضاً– الشيخ: الحاج عثمان بن إدريس بن أبي بكر ميغا، من قرية (كاري بِنْجا) شمال غرب مدينة غاو، جمهورية مالي، خرج للحجّ عام ١٩٥٧م في جماعة من أهل منطقته، جلس في مكة لمدة سنة ثم عاد إلى قريته، لكن لم يَطِبْ له المقام فقرر عام ١٩٥٩م العودة إلى مكة، مع والده وابن عمّه الشيخ برزي عبد الله، نزيل المدينة المنورة إلى الآن، لازم حلقات العلم في الحرم المكي، والشيخ محمد المرزوق، ثم عاد إلى قريته بمالي عام ١٩٦٣م ليبدأ رحلة الدعوة الإصلاحية بمحاربة البدع والخرافات ومواجهة أصحابها، وبحلقاته العلمية في المسجد الجامع بالقرية، وتعدّ مدرسته (مدرسة النهضة الإسلامية) من أوائل المدارس الإسلامية العربية في منطقة غاو، أسسها عام ١٩٦٦م، وفي شهر رمضان من عام ١٩٨٢م زار الأراضي المقدسة، ولما عاد إلى مالي في العام نفسه وافته المنيّة بقريته.

ومنهم: المحدّث الخِضْر سعد (ت ١٩٩٢م في غانا) ويُعدّ أحد أبرز علماء المنطقة المعاصرين، درس في الحرمين الشريفين، وفي دار الحديث، وقد تركزت حركته الإصلاحيّة والتعليميّة أكثر في توغو وغانا. كما كان يقوم برحلات دعويّة متكررة إلى منطقة غاو، جمهورية مالي، وإلى جمهورية النيجر.

ومنهم: الشيخ الحاج محمد بن موسى، من قرية شُروبريا (جُونغاي) على بعد ١٨٠ كيلو متراً، شمال غرب مدينة غاو، جمهورية مالي، أكمل حفظ القرآن فراودته

نفسه للحجّ، وصل مكة في حدود عام ١٩٤١م ودرس على عدد من علماء الحرمين، ومنهم علماء منطقته الذين سبقوه إلى الحرمين كالشيخ عبد الرحمن الإفريقي، والشيخ محمد المرزوق بن عبد المؤمن، عاد إلى مالي عام ١٩٤٩م، وقام هو وأخوه الأصغر الحاج محمد المهدي موسى بجهود عظيمة في محاربة البدع، وفي الدعوة الإصلاحية، وواجه علماء قبيلة (كُلْسوكُ) الطارقية في منطقته، وقام برحلة دعوية إلى تنبكتو، وديرَى، ونِيافونكي، وقبلهما أخوهما الكبير الحاج إبراهيم موسى الذي لا يقلّ جهده عنهما. أنشأ الحاج محمد موسى في آخر حياته حلقة لتحفيظ القرآن، وتوفي عام ٢٠٠٠م عن عمر يناهز الثمانين، وفي قريته –الآن– مدرسة باسمه أسسها ابنه حامد محمد ميغا.

والشيخ الفقيه المفسر: حبيب الله عبد الله ميغا، الذي جاور في مكة والمدينة ودرس في الحرمين، وفي دار الحديث، ولما عاد بدأ دعوته الإصلاحية والتعليميّة من دولة النيجر وشرق مالي منذ الستينيّات من القرن العشرين الميلادي، بحلقاته العلميّة في التفسير، والتوحيد، والفقه، والحديث، ودروسه الدعويّة الأسبوعيّة في المسجد الجامع قرب السوق الكبير في مدينة نيامي عاصمة النيجر، ثم استقر في مدينة سيفاري بمنطقة موبتي بجمهورية مالي، وأسس مدرسة دار الحديث لأهل السنّة والجماعة وواصل –ولا يزال– دروسه العلميّة والدعوية في مسجده المجاور لبيته.

وقد أدركت من أمثال هؤلاء عدداً من قريتي (فُورغو ستْغاي) على بعد ٢٥ كيلو متراً من مدينة غاو، بجمهورية مالي، منهم: الحاج آدم بن كَزِيوا، استقرّ في غانا واشتغل في التجارة، وكان له حلقات علميّة في بيته لأبناء جاليته وتوفي في (تاكورادي ١٩٨٣م)، والحاج محمد داود (وشهرته الحاج حَمَّنْ، وهو حيّ ويعيش في كوماسي بغانا) وكان حجّهما عام ١٩٥٤م. ثم الحاج عثمان أحمد سيدي وأخوه الشقيق عبد الله، والحاج جبريل هلاس وأخوه إسحاق، وذلك حوالي عام ١٩٥٨م، ثم الحاج الحسن بن أَغَدا (شهرته الحاج كِيرا)، والحاج إزَبُنكانَ سدَا (شهرته الحاج بيبو)، والحاج الميمون بن داود.

وفي بوركينا فاسو: كانت بدايات هذه الحركة قد انطلقت عام ١٩٥٢م من مدينة بوبو جُولاسو على يد جماعة منهم: الحاج سالف (صالح) ويدراغو ورفاقه. ومن أبرز

من كان لهم دور في إحياء الحركة الإصلاحيّة في هذه المدينة الحاج مهدي سانا، وعدّه أحدهم أوّل من بدأ إحياء السنّة فيها. ثم انتقل إلى العاصمة وغادوغو عام ١٩٦٤-١٩٦٥م وأصبح أوّل من بدأ بالوعظ والدعوة إلى السنّة في هذه المدينة، وأوّل إمام سنّيّ فيها.

وبعد الحادث الذي تعرّض له أهل السنّة عام ١٩٥٤م استقلّوا بمسجدهم في حيّ سوروكوكين، في مدينة بوبو، وكان أوّل إمام فيه هو الشيخ محمد مالكي سانفو، ثم تعاقب على الإمامة فيه مجموعة من العلماء، والإمام الحالي هو آدم تراوري، درس في قطر فاشتهر بـ (آدم قطر) ثم في جامعة الإمام بالرياض.

من النيجر: الشيخ المحدّث حسن عبد الله، يُعرف بـ (حسن كَيَّا) وشهرته (الحاج لاتا) نسبة إلى مدينة لاتا، في منطقة تلابيري. واللغوي الفقيه: حسين محمد، ويُعرف بـ (حسين بَبُّو) وشهرته (أفا لاَرَبُو) في مدينة نَيْنِي) في المنطقة نفسها. درس الأول في الحرمين الشريفين، وأما الآخر فإنّما عاش فيهما بعض أيّام الحجّ، ويذكر أنّه رجع قبل أدائه. تخرّج على يديهما عدد من أبناء شرق مالي والنيجر في التفسير والحديث والفقه واللغة، كان لهم -ولا يزال- جهد كبير في النهضة السنّيّة المعاصرة في هذين البلدين، وفي غانا، وتوغو، تعليماً ودعوة، وإنشاءً للمدارس الإسلاميّة.

ومن غانا: الشيخ أبو بكر بن عثمان، المشهور بعمر كركي (ت ١٩٣٥م) الذي حجّ وجاور في الحجاز مدّة ثم عاد إلى بلده وقام برحلات دعويّة وتعليميّة.

وهكذا نشهد هذا الأثر الثقافي يتناقل بين أقاصي إفريقيا الغربية وبلاد الحرمين الشريفين، ودروب الحج في محيط الحزام السوداني جيئة وذهاباً، أخذاً وعطاءً[1].

---

(١) دكتور هارون المهدي ميغا، من أبناء مالي، نال درجة الدكتوراة من قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، الرياض، مقال: حجاج ومجاورون، ينقلون دروس الحرمين إلى غرب إفريقيا. مجلة الحج والعمرة، العدد (٥) جمادي الأولى ١٤٢٦هـ يونيو/ يوليو ٢٠٠٥م ص (٤٠).

المسائل العلمية التي أجاب عنها صاحب الرحلة:

توطئة:

استغرقت رحلة حج الشيخ محمد الأمين رحمه الله، من شنقيط إلى مكة المكرمة الفترة من ٧ جمادي الآخرة ١٣٦٧هـ إلى ٢٥ من ذي القعدة ١٣٦٧هـ أي حوالي (٦) أشهر.

ومرَّ في طريقه على (٥٥) مدينة وبلدة وقرية.

وقابل في هذه الرحلة خلقاً كثيراً في المساجد وغيرها، إلا أن الأشخاص الذين كانت له بهم علاقة حميمة أو مباشرة بلغ عددهم (٣٠) شخصاً.

وكانت جملة المسائل العلمية التي أجاب عنها (٤٨) مسألة، اشتملت على كل فنون العلوم الإسلامية، من عقيدة، وتفسير، ومنطق، ونحو وشعر وفقه عبادات ومعاملات إلخ.

ولا شك أن مثل هذه الرحلة لعالم فذ كالشيخ محمد الأمين قد تركت أثراً بالغاً في كل المناطق التي مرَّ بها. كما أحدثت رابطة وجدانية، ورؤية علمية موحدة أو كالموحدة بين أطراف هذه المناطق من أقصى غربها عند المحيط الأطلسي إلى أقصى شرقها عند البحر الأحمر وأرض الحجاز المباركة.

والآن نستعرض هذه المسائل، لكن بشيء من الاختصار، ذلك أن إجابات الشيخ رحمه الله تحتاج إلى مجلدات، ولكننا اقتصرنا واختصرنا هذه الإجابات بحيث يستفيد القاريء ويقف على الآثار التي يمكن أن تتركها مثل هذه المذاكرات العلمية النادرة. ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

حصر المسائل العلمية:

رقم السؤال	الصفحات من –إلى	الموضوع
١	٧–١٥	الفرق بين عَلَم الجنس واسم الجنس. الصفة لا يدرك بدونها الموصوف، وأن الإنسان بغير النطق غير معروف.
٢	١٥–١٦	كلام الأخضري على القياس الاستثنائي ودلالته على النتيجة بمادتها وصورتها.
٣	١٧–٢٢	في كيفية استحالة تسلسل هيولي العالم، والبرهان على حدوث ما سوى الله. تحقيق الفرق بين خطاب التكليف وخطاب الوضع.
٤	٢٣–٢٧	في حكم السَّلَم في مذهب الإمام مالك.
٥	٢٨–٣٥	مسألة في حكم النسخ، وهل ينسخ النص بالإجماع؟
٦	٣٥–٤٥	هل جمع الأختين في التسري بملك اليمين جائز أم لا؟
٧	٤٥–٤٥	كيفية تركيب القياس الاقتراني.
٨	٤٥–٤٦	حكم المبيع الغائب على الوصف هل القول فيه للمشتري أم للبائع؟
٩	٤٧–٤٧	تكرار السؤال عن السَّلَم المار ذكره ص (٢٣).
١٠	٤٧–٤٨	سؤال عن تحقيق النسبة التي بين القدم والأزل.
١١	٤٨–٦٧	سؤال في آيات الصفات وأحاديثها.
١٢	٦٧–٦٩	أسئلة في الأدب والشعر.
١٣	٧٠–٧٠	تفسير سورة الواقعة.
١٤	٧٠–٧١	سؤال نحوي عن الفعل المبني للمجهول.
١٥	٧٣–٧٣	حكم الزواج إذا تزوجت زوجة الغائب ثم حضر الغائب.
١٦	٧٤–٧٤	تزويج ابن العم لابنة أخيه لغيبة والدها هل هو صحيح؟
١٧	٧٤–٧٥	ما الحكم إذ أنكر الزوج ما شرطه لزوجته؟
١٨	٧٥–٧٦	تبيان معاني (سلم الأخضري) في فن المنطق.

١٩	٧٦-٨٣	سؤال عن تعيين ناسخ آية الوصية للوالدين والأقربين.
٢٠	٨٩-١٠١	حكم تولية الكفار المحتلين بلاد المسلمين بعض المسلمين على بعض.
٢١	١٠١-١٠٣	حكم صلاة الجمعة في المساجد الحادثة دون المسجد الأكبر العتيق.
٢٢	١٠٣-١٠٣	سؤال في نكاح من نوى الطلاق ولم يصرح به في العقد.
٢٣	١٠٣-١٠٤	أسئلة في الأدب والشعر وشرح أبيات من شعر عمر بن أبي ربيعة.
٢٤	١٠٦-١١٤	سؤال في المنطق عن القضايا الموجهة وعن بسائطها ومركباتها.
٢٥	١١٤-١١٨	تفسير آية: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ..) الرعد: ٣١ .
٢٦	١١٨-١٢٠	سؤال عن وجه الجمع بين قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) الإسراء: ١٦ وآية الأعراف: (وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا ن) الأعراف: ٢٨.
٢٧	١٢٠-١٣٣	سؤال عن قصة الغرانيق.
٢٨	١٣٣-١٣٦	سؤال عن تحقيق بيتين في ألفية ابن مالك.
٢٩	١٣٦-١٣٩	سؤال في النحو عن المثنى من أسماء الإشارة والأسماء الموصولة.
٣٠	١٣٩-١٤٠	معنى بيت شعر... وتُبلى الألى يستلئمون على الألى... البيت
٣١	١٤٠-١٤٠	بيان المعاني التي تأتي لها لفظه (ما)
٣٢	١٤٠-١٥٠	تحقيق القول بالموجب.
٣٣	١٥١-١٥٨	سؤال عن القادح المسمى فساد الوضع، والقادح المسمى فساد الاعتبار

٣٤	١٥٨-١٦٩	الكلام على أقسام المناط الثلاثة: تنقيح وتخريج وتحقيق المناط.
٣٥	١٦٩-١٨٢	توضيح معنى السَّبر والتقسيم.
٣٦	١٨٢-١٩٠	الكلام على المصالح المرسلة.
٣٧	١٩٠-٢٦٦	أنواع المجاز والاستعارة.
٣٨	٢٦٦-٢٧٤	سؤال عن دليل على وجود دولة لليهود في آخر الزمان.
٣٩	٢٧٤-٢٧٧	في قتال المسلمين مع الترك، ومعنى (المجان المطرقة) الواردة في الحديث.
٤٠	٢٧٧-٢٨٥	سؤال الشيخ عن ذكر بعض شعره.
٤١	٢٨٥-٢٨٦	سؤال في علم المنطق.
٤٢	٢٨٧-٣٠٤	فائدة علمية في الأنساك الثلاثة في الحج (الإفراد التمتع والقران).
٤٣	٣١٦-٣١٩	مسألة في ثبوت حد السرقة عند مالك والاعتراض عليه وجواب الشيخ.
٤٤	٣٢٢-٣٢٥	مسألة في فضل الصلاة على النبي ﷺ.

التصنيف الموضوعي للمسائل العلمية:

	الموضوع	عدد مرات الورود	الصفحات
	علم الأصول	١٠	١٧، ٢١، ٢٨، ٧٦، ٧٩، ١٤١، ١٥١، ١٥٨، ١٦٩، ١٨٢.
	الشعر واللغة	٩	٦٧، ١٠٤، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٦، ١٩١، ٢٧٦، ٢٧٧، ٣٠٧.
	المنطق والكلام	٦	١٣، ١٥، ٤٥، ٧٥، ١٠٦، ٢٨٥.
	النحو	٤	٧، ٧٠، ١٣٦، ٢٨٤.
	فقه الأسرة	٤	٣٥، ٧٣، ٧٤، ١٠٣.
	تفسير	٣	١١٤، ١١٨، ١٢٠.
	فقه سياسي	٣	٨٩، ٢٦٦، ١٧٤.
	فقه عبادات	٣	١٠١، ٢٨٧، ٣٢٣.
	فقه الأحكام	٢	٢٧٦، ٣١٦.
٠	فقه المعاملات	٢	٢٣، ٤٥.
١	عقيدة	٢	١٧، ٤٨.
	جملة المسائل	٤٨	مسألة.

أسماء الأعلام الواردة في الرحلة:

م	الأسماء	ص	الصفة
١	أم الخيرات بنت أحمد بن المختار الجكنية	٧	من بنات عم الشيخ محمد الأمين
٢	العيشي محمد بن عثمان	٢٨/١٥	ابن الأمراء الرئيس
٣	محمد فال بن أحمد نوح	١٥	عالم ومفتي حلة أهل الطالب جدة
٤	سيدى أحمد بن العربي	١٧	رئيس أهل جدة من قبيلة الأفلال
٥	الشيخ المحفوظ بن الغوث	١٧	قاضي قرية تامشكط
٦	محمد الأمين بن الشيخ أحمد	١٧	قاض سابق بتامشكط
٧	أحمد بن عبد الرحمن بن جدة بن خليفة القلاوي	٢٢	عالم وأديب من تامشكط
٨	عثمان بن الحبيب الناصري	٢٧	أمير أولاد الناصر بقرية العيون
٩	المحفوظ بن بيه المسومي	٢٨	قاض وأديب ولوذعي أريب
١٠	سالم بن الطيب	٤٦	من أبناء عمومة الشيخ
١١	محمد المختار بن فال بن بابه العلوي	٦٧	أديب علوي
١٢	إبراهيم بن بابه بن الشيخ سيديا	٧١	شاعر أديب
١٣	أحمد بن الطالب الأمين	٧١	من إخوان الشيخ وتلامذته
١٤	الزاوي	٧٢	من أبناء عمومة الشيخ

١٥	الحاج الكيدي توره	٧٥	تاجر كريم السجايا
١٦	محمد إبراهيم	٧٥	من أهل العلم من قبيلة الطلابة
١٧	محمد الأمين الشريف	٨٣	شريف ظريف
١٨	عبد المحمود	٨٤	تاجر بما يدوقري
١٩	خليفة فرج	٨٥	رجل شهم كريم
٢٠	محمد بن السالم البوحسني الشنقيطي	٨٦	شاعر
٢١	الحاج سعيد محمد	٨٨	
٢٢	علي تني	٨٩	من أهالي الفاشر
٢٣	الحاج مكي	٨٩	أكرم وفد الشيخ
٢٤	محمد عباس فقير (بخيت)	١٠٥	ضابط بوليس بالجنينة
٢٥	الحاج أبو سفيطة	١٠٥	أكرمهم بالخبز واللبن الرائب
١٦	سيدي محمد بن أحمد سيدي	١٠٥	من أهل شنقيط
١٧	محمد خير	١٠٥	ضيفهم بما عنده بالأبيض
١٨	عبد الباقي عبد الباقي	١٠٦	منزل الشيخ بالخرطوم
١٩	محمد محمود بن الشيخ عثمان المعروف بابن عميرة الجكني	١٠٦	شنقيطي بالخرطوم
٢٠	الشيخ إبراهيم يعقوب	١٠٦/ ٢٧٧	مدرس بمعهد أم درمان العلمي

٢١	يوسف النور	١٤١	القاضي الشرعي
٢٢	محمد صالح الشنقيطي[١]	٢٨٦	رئيس البرلمان
٢٣	السيد عبد الرحمن المهدي	٢٨٦	رئيس الأنصار
٢٤	آل جمجوم	٢٨٧	منزل الشناقطة بجدة
٢٥	أحمد بكري	٢٨٧	سوداني بجدة أكرم الشيخ
٢٦	سامي كتبي	٢٨٧	من موظفي إدارة الحج بجدة
٢٧	السيد علوي مالكي	٣١٥	سيد شريف من أعيان مكة
٢٨	محمد بن سيدي محمد بن سيدي جعفر	٣١٦	من جماعة الشيخ بمكة
٢٩	المصطفى بن سيدي محمد بن سيدي جعفر	٣١٦	من جماعة الشيخ بمكة
٣٠	محمد عبد الله آد	٣٢٢	منزل الشيخ بالمدينة

(1) مُحَمَّد صالح الشنقيطي:

- عضو الوفد الاستقلالي لمصر حيث تم التوقيع في ١٩٥٢/١٠/٢٩م على الاتفاق بين حكومة ثورة ٢٣ يوليو والوفد السوداني.
- عضو لجنة تعديل الدستور في أكتوبر ١٩٥٢م.
- عضو الوفد الاستقلالي للتفاوض مع حكومة الهلالي مايو ١٩٥٢م.

أسماء المواضع الواردة في الرحلة:

	الموضع	ص	م	الموضع	ص	م	الموضع	ص
	كيفة	٧	١٧	ماوا	٨٣	٣٣	كبكابية	١٠٥
	أم الخز	١٥	١٨	فورت لامي/	٨٤/٨٣ /٨٥	٣٤	أم كدادة	١٠٥
	تامشكط	١٦	١٩	كنو	/٨٣	٣٥	النهود	١٠٥
	العيون	٢٣	٢٠	كتنه (كشنة)	٨٣	٣٦	الخرطوم	١٠٦/١٠٥
	تنبدقة	٢٨/٢٣	٢١	جص	٨٤	٣٧	ود مدني	١٠٥
	النعمة	٧١/٤٦	٢٢	مايدو وقري	٨٤	٨٣	أم درمان	/١١٤/١٠٦ /١٣٣/١٢٠ ٢٦٨/١٩٠
	بمكو (باماكو)	٧١	٢٣	كمبارو	٨٥	٣٩	سواكن ٢٨٧	٢٨٧
	النوارة	٧١	٢٤	كُسْري	٨٥	٤٠	جدة	٣٢٠ /٢٨٧
	مبتي	٧١	١٢٥	الأبيض	/٨٥ /١٠٥	٤١	مكة المكرمة	٣١٥ /٣٠٤
٠	سيكثو	٧٢	٢٦	آتية	٨٧/٨٦	٤٢	منى	٣٠٦
١	صن	٧٢	٢٧	بحر غزال	٨٦	٤٣	نمرة	٣٠٦
٢	فاوه	٧٢	٢٨	أم حجر	٨٨	٤٤	مزدلفة	٣٠٦
٣	دو ينصه	٧٢	٢٩	آبشَّه	٨٨	٤٥	□رفة	٣٠٦
٤	همبري	٧٢	٣٠	أدري	٨٨	٤٦	التنعيم	٣٢٠
	نيامي	٧٥	٣١	الجنينة	٨٩	٤٧	دهبان	٣٢٠

٥								
٦	مرادي	٨٣/٧٥	٣٢	الفاشر	١٠٤	٤٨	تول	٣٢٠
						٤٩	رابغ	
						٥٠	عزور	
						٥١	هرشي	
						٥٢	مسيجيد	
						٥٣	الفريش	
						٥٤	ذوالحليفة (آبار علي)	
						٥٥	المدينة المنورة	

الخاتمــة

تبين من هذه الدراسة أثر طريق الحج في توحيد الوجدان الثقافي، وتمتين التبادل المعرفي، والتناقل الحضاري على طول هذا الطريق المطروق بوفود الحجيج جيئة وذهاباً على دروب ومسالك بلاد الحزام السوداني.

وكما أن الوحدة المناخية الطبيعية ظاهرة في هذا النطاق الجغرافي، كذلك فإن الوحدة الثقافية ظاهرة لا تخطئها العين بين سكان هذا الإقليم، فمن الصحراء القاحلة التي هي الامتداد الغربي للصحراء الكبرى، أعظم الظواهر الطبيعية في شمال إفريقيا وغربيها، وبين مناخات إقليم السافنا عمقاً، وإقليم الساحل الذي ترتفع فيه معدلات الأمطار وتغطيه حشائش السافنا وصولاً واتصالاً بالسودان الشرقي النيلي عرضاً، تقوم الحضارة الإسلامية بتراثها المتميز في تراب كامل الإقليم ممثلة في الأعراق والألسن والألوان والشيات والفنون والآداب والمذاهب الفقهية، والاتجاهات الصوفية، وثقافة الانفتاح على الآخر، وممارسات التقاليد الجماعية، والأسر الممتدة وقد أهل هذا الموقع المتميز أن تكون شعوب هذا النطاق من عرب وبربر وزنوج ترتبط عرقياً،

وتتوحد ثقافياً لتشارك في الثقافة الإسلامية من جانب وأن تكون على ارتباط وثيق مع الثقافة الإفريقية من جانب آخر.

كما أهلها هذا الموقع أن تنطلق منها حركات إسلامية كبرى، كان من أبرزها حركة المرابطين لتنقل نور الإسلام إلى البلاد المجاورة خاصة في إفريقيا الغربية ودول الصحراء، وفي الحديث حركة الشيخ عثمان بن فودي في دولة صكوتو الإسلامية ذات التأثير القوي في ثقافة شعوب المنطقة خاصة الناطقة بلغة الهوسا والفلاني.

تعرفنا من خلال هذه الدراسة كيف أن رحلة الحج ممثلة في ما دونه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أثمرت علماً ومعرفة وثقافة، وكيف كان تعطش الناس للعلم، بل إن المسائل التي طرحت على الشيخ كانت في غاية الدقة والطرافة والعمق، فقد بلغت المسائل (٤٨) مسألة أجاب فيها الشيخ باستفاضة وتحرير نادر.

كذلك أشارت الدراسة إلى نماذج من رجال العلم الذين قصدوا حج بيت الله الحرام، ثم كان ذلك سبباً في تلقيهم العلم ببلاد الحرمين الشريفين ثم صدروا عنه هذه المعرفة إلى بلادهم معلمين ومرشدين ومربين، فهذه الطائفة النافرة من حجاج بيت الله الحرام كسبت خبرة ومعرفة أفادت قومها، بهذه المعرفة المتناقلة.

لقد كانت رحلة حج الشيخ محمد الأمين رحلة مباركة امتد نفعها إلى كل العالم الإسلامي بدلاً من اقتصاره على منطقته المحدودة في بلاد شنقيط، فهذا كله من فضل الحج وبركته وفائدته في الدين والدنيا.

إن طريق الحج مازالت سالكة براً وبحراً وجواً، لكن كل الغبن والبؤس ألا يتم اكتشاف هؤلاء العظماء من فحول العلماء أمثال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، وألا تتم الاستفادة من هذا الموسم العظيم، والرحلة الميمونة في التوحد الثقافي والتلاقح المعرفي، والترابط الاجتماعي، وتوحيد الفكر والذكر والشعور.

المصـادر والمراجــع :

١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:
الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢- حجاج ومجاورون ينقلون دروس الحرمين إلى غرب إفريقيا:
د. هارون المهدي ميغا، مجلة الحج والعمرة، العدد (٥) جمادي الأولى ١٤٢٦هـ يونيو/ يوليو ٢٠٠٥م.

٣- رحلة الحج إلى بيت الله الحرام:
الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، دار عالم الفوائد، للنشر والتوزيع، مكة المكرمة. إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٤- رحلة الحج البرية:
أ.د. محمد محمود السرياني، مجلة دارة الملك عبد العزيز، عدد محرم /ربيع الثاني ١٤٢١هـ-يوليو ٢٠٠٠م. الرياض.

٥- منسا موسى، سلطان التكرور ورحلة حجه المشهورة:
د. محمد عبد العال أحمد، مركز الدلتا للطباعة، الإسكندرية، مصر، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٦- مشروع طريق الحج الإفريقي من الفكرة إلى ترتيبات التنفيذ:
د. علي محمد عثمان العراقي.

٧- مكة المكرمة والحج في الأدب الإفريقي:
آدم بمبا، مجلة الحج والعمرة، العدد (١٠) ص (٤٨) وزارة السعودية، عدد شوال ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٨- الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي:
د. وزان بن عبد الرحمن الفوزان. المجلد (١١) إقليم الصحراء الكبرى، موريتانيا، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية. ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٩- معجم مصطلحات الاقتصاد الإسلامي:
أبو الحسن علي السماني، الطبعة الأولى، الرياض ١٤٢٥ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

قوافل الحج والحجيج في عهد صلاح الدين الايوبي (ت : ٥٩٨هـ / ١٢٠١م) (دراسة تأريخية)

أ.م.د حنان رضا الكعبي*

ملخص البحث:

فمنذ أن وضع نبي الله أبراهيم (عليه السلام) قواعد البيت الحرام حين أمره الله تعالى أن يؤذن للناس بالحج أضحت مكة المكرمة وبظهور الدين الاسلامي المدينة المنورة مركزا" دينيا" مهما"،يجتمع اليه المسلمون من كل فج عميق...وقد ساهمت رحلات الحج وقوافله في توثيق العلاقات الحضارية بين المسلمين وتبادل الثقافات والمعارف بأنواعها تأثرا" وتأتيرا"، حيث رافقت رحلات الحج وقوافله عدد من العلماء الذين سجلوا لنا مشاهداتهم ودونوها بروايات تأريخية وجغرافية مهمة عن طريق الحج ووصف دروبها وأبرز منازلها وما رافقها من خدمات للحجيج وما تخلل طرقها من أحداث ومخاطر..وهذا ما تؤكده لنا الروايات التي أكدت عمق العلاقات مابين شعوب السواحل الإفريقية–وسكان الجزيرة العربية منذ القدم، فلا يفصلهما سوى البحر الأحمر واستمر هذا التواصل التجاري والحضاري والديني عن طريق موسم الحج وقوافله، وسنحاول تسليط الضوء على دور (أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي) في هذا المجال– فقد أولى صلاح الدين الأيوبي والايوبيون بشكل خاص الحج ومناسكه اهتماما" ملحوظا"،كونها جزء" مهما" من سياستهم الدينية ، فأهتم بطرق الحج وقوافله وأولاها رعاية دينية متميزة، كما أهتم بمنصب أمارة الحج ومتوليها وتأمين طرق الحج وإسعاف الحجيج وتوفير الخدمات المناسبة لتأمين أداء فريضة الحج بنجاح،فحاول صلاح الدين الأيوبي مد نفوذه للحجاز فضلا" عن مصر واليمن وإقليم الجزيرة

*الجامعة المستنصرية – كلية الآداب– قسم التاريخ– العراق

وإفريقيا، لما لها من قدسية دينية ومكانة متميزة في نفوس العالم الإسلامي،بمساعدة إخوته وأقاربه.

وسنحاول تسليط الضوء على الدور المهم الذي اختص به صلاح الدين الأيوبي- تحديدا"- في تأمين سير قوافل الحجيج وتسهيل أداء مناسكهم وما تخللها من أعمال خيرية وصدقات وجرايات ،رغم أنه لم يؤد فريضة الحج طوال حياته أثر انشغاله في صد هجمات الحروب الصليبية..إلا أنه أولى هذه الفريضة اهتماما" خاصا" بمنازل الحج وآبارها وتوفير المياه لهم وخاصة الطريق الإفريقي المصري مرورا" للاماكن المقدسة وحماية قوافلهم كجزء من واجبه الديني وحسن عقيدته،مما شجع على ازدياد أعداد الحجيج الوافدين لمكة من غرب إفريقيا وشمالها وبقية الأمصار الإسلامية- وهذا ما سنحاول تتبع رواياته التاريخية والتركيز عليه.. ومن الله العون والتوفيق.....

Since the Prophet Abraham mode (peace be upon him) to the Sacred House rules when God ordered him to be authorized for the people has become a Mecca pilgrimage and the emergence of the Islamic religion Medina an important religious center , he meets him Muslims from every deep ravine . . . Hajj flights convoy has contributed to closer cultural relations between Muslims and the exchange of cultures and knowledge of all kinds affected and Totara , where he accompanied the pilgrimage flights and convoys number of scientists who have signed us their observations , and they wrote historical and geographical novels task for the pilgrimage route and describe its streets and most homes and Maravgaha of services to pilgrims and Matkhall tread of events . We will try to highlight the important role reserved for SalahuddinAloiopi- geographically central in securing the conduct of convoys of pilgrims and facilitate the performance of rituals and Matkhallha acts of charity and alms and

rations, although he did not lead a pilgrimage throughout his preoccupation with the impact of the Crusades in repelling the attacks. But it is the first of these obligatory special attention to the homes of Hajj and its wells and provide water for them , especially the Egyptian African way through the holy sites and the protection of convoys as part of a religious duty and good faith, which has encouraged the increasing numbers of pilgrims coming to Mecca, West Africa and the north and the rest of the regions of the Muslim- This Masnhaol trace the historical novels . It is God's help and success

المقدمة:-

تعتبر إفريقيا أولى القارات ترحيبا" بالإسلام وأهله،عندما هاجر إليها المسلمون الأوائل إلى نجاشي الحبشة، إلا أن الإسلام لم ينتشر في إفريقيا إلا بعد فتح مصر، فأنطلق منها إلى شمال إفريقيا وغربها، الذي ارتبط انتشاره بطرق التجارة التي تربط بلاد المغرب وبلاد غرب إفريقيا عبر الصحراء الكبرى وعلى طول ساحل المحيط الاطلسي، الذي انتقل عن طريق الحركة التجارية وانتقال التجارة عبر المحاور التالية، لينشأ التواصل بين المركز والاطراف :

١. "طريق شمال إفريقيا نحو تمبكتو ابتداء من فاس وتلمسان والقيروان وطرابلس الغرب"[١] .
٢. "طريق شمال إفريقيا نحو منطقة بحيرة تشاد أنطلاقا من المهدية في تونس وطرابلس الغرب وطبرق"[٢].
٣. " طريق القاهرة – بحيرة تشاد عبر وادي النيل "[١].

---

[١] شبلي : احمد، موسوعة التاريخ الإسلامي، ط٤، القاهرة،مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣، ج٦، ص١٩٤.

[٢] احمد شبلي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٦، ص١٩٤.

فكان للتمازج الحضاري والفكري فعله المؤثر وقد تجلى من خلال دور التجار المسلمين في عكس صورة مشرقة للدين الإسلامي من خلال تعاملاتهم التجارية والإنسانية وحرصهم على احترام تعاليم الدين الحنيف كما حرصوا على تشجيع انتقال العلماء المسلمين والمحدثين الافذاذ لتلك البلاد وعقد حلقات العلم والدرس بالدعوة لنشر تعاليم الدين الإسلامي والتفقه بمبادئه فيشير أحد المستشرقين إلى هذا الأمر قائلاً :

(إن انتشار الإسلام بإفريقيا لم يقم على القسر ، وإنما قام على الإقناع الذي يقوم به الدعاة لا يملكون حولاً ولا قوة إلا إيمانهم العميق بدينهم ،وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتمدد السلمي البطيء من قوم إلى قوم)[٢].

وكان لهجرة بعض القبائل العربية من شمال افريقيا الى غربها واستقرارها بين شعاب المنطقة فكونوا جاليات مستقرة أسست لها مدنا مستقلة بمرور الزمن وهذا ما أكدته الروايات التاريخية[٣] ، والحج ركن مهم من أركان الاسلام من استطاع اليه سبيلاً وهو رحلة دينية وعلمية وموسم ثقافي وتجاري يجتمع فيه المسلمون من كل صوب، وتأريخ أداء الحج من الشمال الافريقي والصحراء الى بلاد السودان الغربي يأتي متزامناً مع بدايات انتشار الإسلام فيها، و" يعد مناسبة اجتماعية ومظاهرة ثقافية وسوقاً اقتصاديا وعنصراً مهماً في حركة الناس وتنقلاتهم" [٤].

فكان لقوافل الحج الإفريقية المتجهة إلى بيت الله الحرام ثمارها في نشر الثقافة الإسلامية من خلال حضور حلقات العلم والمناظرات الفقهية أثناء تأديتهم لمناسك

---

[١] احمد شبلي، المصدر نفسه، ج١، ص١٩٤.

Blyden : Christianitry , Islam and the Negro Rece , London , 1981, p.18-19.

[٣] للمزيد ينظر : اليعقوبي، احمد بن واضح (ت : ٢٨٢هـ)، البلدان، لندن، ١٨٩١، ص٩٨ ؛ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت : ٨٠٨هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم = =والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢ م، ج٦، ص١٦٦، ص١٨٠، ص٢٤١.

[٤] المقريزي : تقي الدين احمد بن علي (ت : ٨٤٥هـ)، الذهب المسبوك في ذكر من حج الخلفاء والملوك، القاهرة، ١٩٥٥، ص١١٠-١١١.

الحج والعمرة.وحلقات المساجد على دروب الحج من مصر وإفريقيا والمغرب والأندلس والشام والعراق وشبه الجزيرة العربية .

والحج لغةٍ : "هو القصد والكف والقدوُم" ، والحج القصد مطلقاً حجة يحجه حجاً : أي قصده [١] ، وأما معناه الاصطلاحي: فهو قصد بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج وسائر المناسك تقرباً ومرضاة لله تعالى. فكانت دروب الحج والحجيج روافد حضارية وإسلامية مهمة حيث شيدت على امتدادها المساجد والمنازل والدروب والقلاع وآبار المياه والبرك والأسواق التجارية لتسهيل أمور الحاج ومناسكه فأنشأت معالم إسلامية بارزة تمثلت بالقرى والمدن الحضارية المهمة.

وهذا ما صوره لنا القرآن الكريم في عدة سور قرآنية منها قوله تعالى: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا" وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق،ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير)[٢]. وقوله تعالى:(وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)[٣] ، وقوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجّ)[٤]، وقوله تعالى:(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)[٥].

فلم تقتصر فريضة الحج كونها ركناً دينياً مهماً ، بل تجاوزها الى منافع أخرى كون موسم الحج ملتقى دينياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً مهم يتعايش من خلاله المسلمون الحجاج منهم والتجار والمجاورين بالمساجد لتبادل المعارف والخبرات في الأمور الدينية والاقتصادية والاجتماعية فتشكل تمازجاً ثقافياً متميزاً في وقت واحد.

---

(١) الفيروزي آبادي : محمد بن يعقوب (ت : ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩، ج١، ص١٨٢.

(٢) سورة الحج، الآية : ٢٧-٢٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية : ٩٧.

(٤) سورة البقرة، الآية : ١٨٩.

(٥) سورة البقرة : آية : ١٥٨..

أنواع طرق الحج الرئيسية :-

حظيت طرق الحج والحجيج بمكانة سامية وموضع اهتمام الخلفاء والسلاطين وأمرائهم في الدولة العربية الإسلامية ، بل تّعدتها للأمراء والأعيان والتجار من عامة المسلمين والتي لا تخلو من دافع ديني حقيقي لقدسية فريضة الحج ومناسكها في نفوس المسلمين جميعاً.

وقد اكتسبت دروب الحج ومواكبه أهمية تاريخية ثرة سجلت من خلالها وصفاً دقيقاً لطرق الحج ومسالكه ،وأبرز منازلها وما رافقها من أبعاد حضارية تبلورت في المرافق الخدمية للحجاج وهي تشق طريقها إلى شبه الجزيرة العربية من شرقها وشمالها وجنوبها وصولاً للحرمين الشريفين.

طريق الحج العراقي :-

لابد من القول بأن أغلب طرق الحج العربية هي نفسها طرق التجارة العربية فتسلك للتجارة والحج معاً.

أما طريق الحج العراقي فيسلكه حجاج العراق وفارس وخراسان ،والحجاج الذين يتجمعون في الكوفة من بلاد المشرق السلامي مروراً إلى مكة والمدينة المنورة.

وبعد درب زبيدة من أشهر طرق الحج الرئيسية وكان يربط المشرق الإسلامي والعراق بالحرمين الشريفّين ويبدأ، (من غرب الكوفة مروراً إلى وادي العقيق، ثم يتحول للجنوب الغربي إلى ذات عرق ومنها لمكة المكرمة عبر جبال الحجاز، وتتخلله العديد من المحطات والفروع والمنازل)[1]

(1) للمزيد ينظر : اليعقوبي، تاريخ العقوبي، بيروت دار صادر ١٩٦١، ج١،ص٩١ ؛ الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت : ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٦، ج٦، ص٤٦٥.

طريق الحج الشامي:-

وينظم إليه الحجاج الشامون وحجاج دول أواسط آسيا الإسلامية فيجتمعون في دمشق ، حيث تنطلق منها قافلة الحج فتشق قرى الشام[١] ،وهو طريق التجارة القديم الرابط بين الشام ومكة الذي ذكرهّ الله تعالى: إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ [٢].

وقد طرأ على هذا الطريق تطور مهم في القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) فأخذت قوافلالحج الشامي تسير باتجاه الشرق نتيجة سيطرة الصليبين على القلاع الجنوبية على طريق الحج الشامي ، مما اضطرهم لعقد الهدنة معهم حتى تم تحريرها سنة ٥٨٣ هـ على يد صلاح الدين الأيوبي فأصبحت أكثر أمناً للحجيج وقوافلهم، وهذا ما سنتناوله في ثنايا البحث.

طريق الحج اليمني :-

يتوافد على هذا الطريق حجاج "جنوب شبه الجزيرة العربية بما فيها ظفار ،وعمان بعد تجمعهم في صنعاء"[٣].

طريق الحج المصري:-

ويسلكه جميع حجاج مصر وإفريقيا والمغرب والأندلس بعد تجمعهم في الفسطاط ،وفي العصر الفاطمي اتخذت القاهرة محطة لتجمع قوافل الحج المصري كونها عاصمة الدولة واكتسبت درب الحج المصري أهميته الجغرافية كون القاهرة كان يجتمع خارجها الحجاج المصريون والقادمون من شمال إفريقيا وغربها ووسطها[٤].

تجهز هذه الطرق بكل مستلزمات مواكب الحج أثناء رحلتهم للحرمين الشريفين ،وسنستعرض بعض ملامح طريق الحج المصري أكثر من سواه ، فقد ساعد موقع

---

(1) الجزيري : عبد القادر بن محمد (ت : ٩٧٧هـ)، الدرر الفرائد المنظمة في إخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق : محمد حسن محمود، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢ م، ص١٥٤.

(٢) سورة قريش، الآية : ١-٢.

(٣) للمزيد ينظر : سيد عبد المجيد، الملامح الجغرافية لدروب الحج، ط١،جدة، طبعة تهامه للنشر والتوزيع،١٤٠٠هـ، ص٨٠.

(٤) الجزيري، الدرر، ج١، ص١٤٨.

مصر الجغرافي وخصوصيته فأضحت البوابة الرئيسية للحجاج القادمين من شمال القارة الإفريقية وغربها مروراً إلى بيت الله الحرام .

ولو تتبعنا بدقة الروايات التاريخية والجغرافية حول طبيعة طريق الحج المصري – تحديداً – ومساره نجد اختلافا واضحاً في تلك الروايات من حيث عرض ذلك الطريق ودروبه وأبرز منازلة ربما بسبب تعدد طرق الاتصال ما بين مصر والحجاز من جهة ،وبسبب طبيعة الظروف السياسية والاقتصادية وانعكاساتها على دروب الحج المصري والشامي منذ منتصف القرن الخامس للهجرة.

فقد أشار المقريزي الى هذا الأمر قائلاً : (اعلم أن حجاج مصر والمغرب ، أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة شرفها الله تعالى ، إلا من صحراء عيذاب*، يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص** ، ثم يركبون

---

* عيذاب : مدينة كبيرة على ساحل بحر جدة غير مسورة، تقع في أعلى الصحراء المنسوبة إليها،ومنها العبور لجدة عبر قوص، وأكثر بيوتها من الأخصاص،وهي من أحفل الموانئ السودانية الرئيسة على البحر الأحمر،ويقال إن عيذاب اسم لنوع من الأعشاب باللغة البجاوية ينمو بكثرة في منطقة عيذاب وأهلها من قبيل السودان يعرفون (بالبجاة) وهم سود الألوان، يلتحفون بملاحف صفراء. للمزيد ينظر:

ابن جبير: ابي الحسن محمد بن احمد الأندلسي، (ت : ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، قدم له ووضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠م، ص٥٤-٥٩؛ ابن بطوطة: محمد بن عبد الله الطنجي (ت : ٧٧٩هـ)، رحلة ابن بطوطه، اعتنى به وراجعه: د. درويش الجويدي، بيروت، المطبعة العصرية، ٢٠٠٨م، ج١، ص٥١-٥٢؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص٣٧٣-٣٧٤ ؛ الجزيري، الدرر، ج١، ص٢٤٢، ص٢٤٨-٢٤٩.

** قوص : مدينة عظيمة واسعة وهي آخر محطة على نهر النيل وأول الطريق البري الى صحراء، عيذاب، كثيرة الخيرات مليئة بالمساجد والمدارس الأثيرة والأسواق والمرافق والفنادق، للمزيد ينظر :

أبن جبير، رحلة ابن جبير، ص٥٣-٥٥ ؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥١ ؛ الجزيري، الدرر، ج١، ص٢٤٣ ؛ مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق، سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، ١٩٨٥ م، ص٨٥.

الإبل من قوص ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب ثم يركبون بحراً في الجلاب*** إلى جدة ساحل مكة [١].

فكان الحجاج يركبون من مدينة الفسطاط إلى مدينة قوص عبر نهر النيل (وبعد وصولهم قوص يتجمعون في المبرز جنوبي قوص إذ يتم حصر أمتعتهم لغرض فرض الضريبة عليها)[٢] ،وأثناء عبورهم في رحلتهم فتمر القافلة على العديد من المحطات والمنازل المهمة (وتنتهي هذه الرحلة الشاقة إلى عيذاب ،ومن عيذاب يواصلون رحلتهم عبر البحر وصولاً للشاطئ الغربي للبحر الأحمر حتى جدة)[٣].

فكانت رحلة الحجيج قاسية وشاقة لا تخلو من مخاطر جمة اذ يركبون الجمال براً بأحمالهم ويصعدون الجلاب بحراً التي تستغرق من عيذاب إلى جدة " ثلاثة وعشرين يوماً "[٤].

وقد أتحفنا (ابن جبير) برواية غاية في الدقة عن قساوة الطريق ومعاناة الحجيج من خلاله إذ يقول:

" وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء والعطش أشهى الى النفس منه، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء، يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله : ماءً زعاقً وجوٌ كله لهب"[٥].

*** الجلاب : ومفردها جلبة وهي نوع من المراكب الصغيرة في البحر الأحمر المخيطة بأمراس من قشر جوز الهند يبرمونه إلى أن يتخبط ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب وتتخللها عيدان النخيل، تحمل الحجاج إلى جدة ذهاباً ويرجعون بها بعد قضائهم لفريضة الحج ليجتمع لهم من هذه المرافق مال كثير. للمزيد ينظر : ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٥٨ ؛ الجزيري، الدرر، ص٢٤٩.

(١) المواعظ والاعتبار، ج١، ص٣٧٣-٣٧٤ ؛ الجزيري، الدرر، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٤١.

(٣) ابو جبير، المصدر نفسه، ص٥٩.

(٤) ابن جبير، المصدر نفسه، ص٥٩.

(٥) ابن جبير،المصر نفسه، ص٥٩.

ولقد كان للحروب الصليبية وقرب حصون الأفرنج فعلها المؤثر ، فبقي طريق عيذاب– جدة الطريق الحيوي والرئيسي لقوافل الحجيج ، "حتى سنة ٦٦٦هـ ، أي لمدة تزيد عن مائتي العام" [١].

وعادةً ما تجهز قوافل الحجيج بجميع المستلزمات اللازمة ، لتحمل تلك الرحلة ومشاقها من" المأكل والمشرب والملبس يرافقهم المؤذنون والأطباء والفقهاء وأصحاب الحرف والصنائع"[٢].

لمحة من سيرة صلاح الدين الأيوبي :

أسس الدولة الأيوبية (٥٧٠–٦٤٨هـ / ١١٧٤–١٣٥٠م) ، " الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي ، بعد أن تولى الوزارة الفاطمية سنة (٥٦٤هـ / ٥٧٠م) في عهد الخليفة العاضد لدين الله"[٣] فقد تطلع صلاح الدين الأيوبي إلى أقامة دولته الأيوبية وتضم مصر والشام والجزيرة وشمال إفريقيا واليمن ، في ظروف سياسية وعسكرية حاسمة تمثلت في ضعف الخلافة العباسية وعجزها عن الوقوف أمام الصراعات السياسية بين الدويلات والإمارات المتنافسة على السلطة في الوقت الذي بدأ الخطر الصليبي يتزايد وأخذ خطره أفقاً عسكرياً ضد أمن المسلمين والدولة العربية الإسلامية ، فكان للدولة الأيوبية دور تأريخي مهم في مواجهة العدوان الصليبي ومخاطره على الدين وأهله.

ينتمي صلاح الدين الأيوبي للأسرة الأيوبية التي تنسب إلى " أبو الشكر أيوب بن شادي بن مروان والد صلاح الدين الملقب بالملك الأفضل نجم الدين من عشيرة كردية كانت تسكن منطقة بدوين في اذربيجان من جهة آران وبلاد الكرج"[٤].

---

[١] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص٣٧٣–٣٧٤.

[٢] الجزيري، الدرر، ص٢٢٧–٢٢٨.

[٣] للمزيد ينظر : المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٠٥.

[٤] ابن خلكان : أحمد بن محمد (ت : ٦٨١هـ)،وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان، تحقيق : أحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢، ج٢، ص١٢٠ ؛ اليافعي، عبد الله بن أسعد (ت : ٧٦٨هـ)، مرأة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث

وقد أشارت الروايات التاريخية إلى أن " شادي جد صلاح الدين نزح وأبناؤه أيوب وأسد الدين شيركوه* عن المنطقة وأستقر في بغداد تحت رعاية شحنة بغداد بهروز ، الذي أسند ادارة مدينة تكريت إلى شاذي سنة ٥٢٤هـ ،وتولى أبناؤه أيوب وشيركوه في إدارة المدينة وقلعتها"(١).

إما صلاح الدين الأيوبي: " هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي الملقب بالملك الناصر، صلاح الدنيا والدين، خادم الحرمين الشريفين، صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمينة"(٢).

مولده : ولد صلاح الدي الأيوبي سنة (٥٣٢هـ) ،وقد أشار ابن شداد الى سنة ولادته بأنها : سنة أثنتين وثلاثين وخمسمائة ،وذلك بقلعة تكريت(٣).

الزمان،ط٢، بيروت، مؤسسة الاعلمي، ج٣، ص٣٩٩-٣٤٠ ؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٠٥.

* أسد الدين شيركوه : ومعناه أسد الجبل،وهو الملك المنصور اسد الدين أبو الحارث أخ أيوب وعم صلاح الدين الأيوبي، وكان شجاعاً له مآثر في مقاومة الغزو الصلبي وعلى يديه فتحت عدد من الحصون والقلاع، تولى الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي لمدة شهرين وخمسة أيام وتوفي بدمشق سنة ٥٦٤ هـ فجأة ودفن بالقاهرة ثم حمل للمدينة المنورة بناء على وصيته، للمزيد ينظر : ابن خلكان،وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٨٠ ؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت : ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،مصر، وطابع كوستاستوماس وشركاء، ١٩٦٣، ج٦، ص٣٥٦.

(١) ابن واصل : جمال الدين بن محمد (ت : ٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين شيال،مصر، المطبعة الأميرية، ١٩٥٧، ج١،ص٨، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٥.

(٢) ابن شداد : أبو المحاسن بهاء الدين (ت : ٦٣٢هـ)، سيرة صلاح الدين الأيوبي المسمى النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية،مصر،مؤسسة هنداوي، ص٧ ؛ ابن خلكان،وفيات الأعيان، ج٧، ص١٣٩.

(٣) النوادر السلطانية، ص٩.

إما أخوانه فهم، شمس الدولة تورانشاه ،وسيف الإسلام ظهير الدين طغتكين ،وشاهنشاه بن ايوب ،وأخته زمرد خاتون المعروفة بـ (ست الشام)[١].

وبعد تكريت انتقل أبوه أيوب وعمه شيركوه في خدمة نور الدين زنكي حاكم الموصل وحلب " ثم رتب أيوب بقلعة بعلبك مستحفظاً ثم أنعم عليه بإمارة"[٢] ،وكان صلاح الدين ملازماً لوالده وعمه ، فقدمه الملك العادل نور الدين زنكي وعول عليه وقربه له وقد تبوأت أسرة صلاح الدين مراكز إدارية مهمة " فأخوه شمس الدين تورانشاه متولياً لشحنة دمشق ،وعمه أسد الدين شيركوه نائب عن نور الدين زنكي في مشارفة الديوان، وعندما تخلى أخوه تورانشاه عن شحنة دمشق، تولاها صلاح الدين سنة ٥٥١هـ"[٣].

وبعد وفاة عمه شيركوه، حظي صلاح الدين الأيوبي بمنزلة رفيعة فقد كانت ملامح النجابة واضحة علية فأستطاع أن يكسب ثقة الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله فقلده منصب الوزارة خلفاً لعمه شيركوه سنة (٥٦٤- ٥٧٠هـ) "فأقيم بعده في وزارة العاضد ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ... سنة أربع وستين وخمسمائة ولقبه بالملك الناصر وأنزله بدار الوزارة من القاهرة ، فأستمال قلوب الناس وأقبل على الجد"[٤]، فبدأ نفوذ الأيوبيين يمتد ويبرز أكثر بسبب حسن سيرتهم وشجاعتهم ومقدرتهم العسكرية والإدارية في تسيير الأمور.

أما صلاح الدين الأيوبي ، فقد "كان حليماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه"[٥].

---

(١) ابن خلكان،وفيات الأعيان، ج١، ص٣٦٠، ج٣، ص٢٤٤.

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٠٥.

(٣) ينظر : أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي (ت : ٦٥٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق : إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢، ج١، ص٢٥١.

(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٠٥.

(٥) ابن العبري : أبي الفرج غريغوريوس الملطي (ت : ٦٨٥هـ)، تاريخ مختصر الدول، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧، ص١٩٤.

لقد حرص صلاح الدين على توطيد أركان حكمه فبعث الى أبيه وإخوته وأقاربه ،وهذا ما أكده لنا المقريزي قائلاً : "واستبد صلاح الدين بالسلطنة من أول سنة سبع وستين وخمسمائة وأستدعى أباه نجم الدين أيوب وإخوته من بلاد الشام فقدموا عليه بأهاليهم"[١].

ممهداً لقيام الدولة الأيوبية في مصر بخطوة تاريخية مهمة فبادر صلاح الدين الايوبي سنة (٥٦٧هـ) بقطع الخطبة للخليفة العاضد لدين الله الفاطمي ،"وأمر يخطب باسم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله* سنة (٥٦٧هـ)"[٢]، ليكسب ود الخليفة العباسي ويضمن تأييده ومباركته لإسقاط الخلافة الفاطمية، كونه الخليفة الشرعي للدولة العربية الإسلامية مستغلاً ضعف الخليفة العاضد لدين الله وقوة مركزه السياسي والعسكري بعد أن كسب ود المصريين وتأييدهم له، فجاء في إحدى الروايات التاريخية هذا المعنى ضمن أحداث سنة (٥٦٨هـ) بالقول:

" وأتفق أن العاضد مرض، فأستشار صلاح الدين أمراءه فمنهم من وافق ومنهم من خاف ... فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا

---

[١] المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٤٨، ج٣، ص٤٠٦.

* المستضيء بأمر الله : هو الحسن أبو محمد بن المستنجد بالله (٥٦٦-٥٧٥هـ)،ولد سنة ٥٣٦هـ، أمه أم ولد أرمنية اسمها ضضة، بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه تولى الخلافة تسع سنين وسبعة أشهر، كان عادلاً كريماً حليماً، ذو أناة ورأفة، توفي سنة (٥٧٥هـ) وعهد لابنه احمد الناصر لدين الله بالخلافة بعده، للمزيد ينظر : ابن خلكان،وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٧٠، السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن (ت : ٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، راجعة وعلق عليه : جمال محمود مصطفى، القاهرة، دار الفجر للتراث، ٢٠٠٤، ص٣٤٨-٣٥١.

[٢] سبط ابن الجوزي : أبو مظفر يوسف بن قزاوغلي (ت: ٦٥٤هـ)،مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الهند، حيدر أباد الدكن، ١٩٥١، ج٨، ق١، ص٣٨٥ ؛ أبو شامة، الروضتين، ج١، ص١٣٣ ؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٩، ص٣٥٠.

للمستضيء، فلم ينكر ذلك أحد ، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بقطع خطبة العاضد ... والعاضد شديد المرض، فتوفي في يوم عاشوراء "[١].

ثم أنفرد صلاح الدين الأيوبي بحكم مصر بعد وفاة نور الدين زنكي سنة ٥٦٩ هـ [٢]، مما فسح المجال أمامه واسعاً لإعلان دولته الأيوبية (٥٧٠-٦٤٨هـ) التي استمدت قوتها وثقلها السياسي كضرورة سياسية وعسكرية ملحة أمام الغزو الصليبي وهجماته المستمرة ، فكان لظهور صلاح الدين الأيوبي على الساحة السياسية آنذاك فعلها المؤثر لمواجهة التحديات مما فرض عليه أن يضم بلاد الشام لحكمه الى جانب مصر.

كما سعى صلاح الدين الأيوبي إلى مد النفوذ الأيوبي بعد وفاة نور الدين زنكي الى بلاد الحجاز لمكانتها الدينية وقدسيتها، وللإشراف المباشر على توفير مستلزمات الحج والحجيج فيها بموافقة مكة ،وامتدت سلطته لتشمل الجزيرة الفراتية وبلاد اليمن خلال فترة حكمه التي أستمرت أربعة وعشرين عاماً لمصر وملكه للشام يقارب تسع عشرة سنة، ليجعل من نفسه رمزاً ومثالاً يحتذى من الشجاعة والمجد والكفاية العسكرية المتميزة التي تمثلت وبشكل جلي في صراعه مع الغزو الصليبي وتصديه للهجمات الصليبية بكل شجاعة وجرأة وحنكة عسكرية قل نظيرها حتى وفاته سنة (٥٨٩هـ) في " ليلة السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح من سنة تسع وثمانين وخمسمائة"[٣]، بعد أن كسب ود المسلمين بشجاعته ومروءته وحلمه وتضحياته فاجتمعوا على محبته ومناصرته في مصر والشام بشكل خاص ، "وتوزعت دولته مابين أبنائه وإخوانه من بعده"[٤].

---

[١] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠ .

[٢] السيوطي، المصدر نفسه، ص٣٥٠.

[٣] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٤١٧ ؛ أبو شامة، الروضتين، ص١٤٧ ؛ أبو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت : ٧٣٢هـ)، المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه : محمود ديوب، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧، ج٢، ص١٧٣.

[٤] أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، ص١٧٤-١٧٥.

وعن أولاده قيل " وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً ،وبنتاً واحدة ، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين علي بن يوسف ... وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين ،وكان الظاهر صاحب أصغر منهما..."[١].

فكان بحق سلطان الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن وحافظ الديار الإسلامية ومثبت أركانها والمحافظ على وحدة المسلمين فيها .

طرق الحج والحجيج في عهد صلاح الدين الأيوبي:-

حظيت حركة الحج والحجيج باهتمام الدولة الأيوبية منذ نشأتها فقد عاهد الأيوبيون أنفسهم على رعاية حجاج بيت الله الحرام وتسهيل مستلزمات راحتهم ، وحماية وتيسير أمور الحج وطرقه ،وحرمة الحرمين الشريفين وتقليل معاناة الحجاج من مصاعب نقص الماء والغذاء وخطورة الطريق ومصاعبها سواء في البر أو البحر ،وما يواجهونه من تأثير الكوارث الطبيعية والمناخية ، الأمر الذي شجع الحجاج على أداء فريضة الحج ومناسكها من جميع انحاء الدولة العربية والإسلامية لتنظيم قوافلهم والسير في رحلتهم صوب بيت الله الحرام .

فقد حرصوا على توفير الابار وحفرها على طوال طريق الحج وإصلاحها وإقامة القلاع لتوفير الأمن للحجاج من أي خطر ،وبناء المناور الشاهقة لتوضيح مسالك الحج للحجاج وإرشادهم ،ووضع الصهاريج وخزانات الماء وتوفير الأدوية والعلاجات اللازمة للحجيج.

وتشير الروايات التاريخية إلى أن بوادر اهتمام الأيوبيين بطرق الحج والحجيج تعود بداياتها منذ أيام نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي "عندما تولى إمارة الحج الشامي عام ٥٥١هـ في عهد نور الدين زنكي"[٢] ، "عندما أدى فريضة الحج عام "٥٥١هـ"، وأستقبله هو والحجاج نور الدين زنكي بنفسه مشرفاً على سلامة وصولهم "[٣].

---

(١) أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٧٤-١٧٥.

(٢) الجزيري، الدرر، ص٢٦١.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة جنان، ج٨، ص٢٢٧ ؛ الجزيري، الدرر، ص٢٦١.

ومن الشخصيات الأيوبية الذي ارتبط اسمها بالحج ، الملك المنصور أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي ، فقام بأداء فريضة الحج من الشام سنة (٥٥٥هـ)، "وكان خروجه بموكب عظيم مستصحباً معه الأزواد والكسى ،وقيل معه ألف شخص يقدم لهم الطعام والشراب"[١].

وكان لصلاح الدين الأيوبي الحظوة والحظ الأوفر أكثر من سواه من الأيوبيين في الاهتمام بالحج وطرق الحجيج ، إن تركيز اهتمام صلاح الدين على الحج ومراسيمه وتأمين طرقه وسلامة حجاج بيت الله الحرام ، فسح المجال واسعاً للإقبال على أداء الحج وكثرة قوافله حتى لقب صلاح الدين الأيوبي بـ (خادم الحرمين الشريفين)[٢] ، فعزز من علاقته مع الحجاز وأخذ يتطلع للسيطرة على الطرق المؤدية للحجاز لتأمين سلامة الحجاج ذهاباً وإيابا.

ومن الجدير بالقول –أن صلاح الدين رغم اهتمامه وشديد عنايته بالحج وتسيير قوافل الحج للمسلمين الا أنه لم يؤد فريضة الحج في حياته رغم رغبته الصادقة في أدائها بسبب طبيعة الظروف السياسية والعسكرية التي شهدتها الدولة العربية الإسلامية آنذاك وفي مقدمتها انشغاله بالجهاد ضد الغزو الصليبي وقلقة من مخاطره على أمن الدين الإسلامي والبلاد الإسلامية عامة.

وتحدثنا الروايات التاريخية بأن صلاح الدين الأيوبي قد عزم على أداء فريضة الحج ثم يعود للجهاد ونوى لمرتين ، الأولى سنة (٥٧٦هـ) وكتب بذلك كتاباً، "بعزم صلاح الدين على الحج ... لكن قلق صلاح الدين من المخاطر التي كانت تواجه مصر جعلته ينشغل بترتيب مسألة الدفاع عنها ضد الخطر الصليبي:[٣].

---

[١] ينظر : أبن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن (ت:٥٧١هـ)، تأريخ دمشق الكبير،تحقيق وتخريج: أبو عبد الله الجنوبي،ط١،بيروت،دار أحياء التراث العربي،٢٠٠١م ج٢٥، ص١٩٢ ؛ أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٣٤٤ ؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٥٣.

[٢] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٧.

[٣] أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٤٥ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٩٢.

وفي عام (٥٨٨هـ) كانت محاولته الثانية لأداء مناسك الحج بعد أن عقد صلح الرملة مع الأفرنج ،مُعلناً أن طريق الحج من الشام مؤمن للحجيج ،وبرواية (ابن شداد) كما وصفها وقد شهد ذلك جميعاً بقوله:

" ثم أمر المنادي أن ينادي في الطرقات والأسواق إلا أن الصلح قد أنتظم في سائر بلادهم ... وأشار رحمه الله إلى أن طريق الحج قد فتح من الشام ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس"(١).

ويتحفنا برواية أخرى غاية في الأهمية صور من خلالها سبب تأجيل الحج في تلك السنة، قائلاً : (أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدو ،وقد بقيت لهم هذه البلاد فيخرجون لاسترداد بقية بلادهم ،ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعّد في رأس قلعته يعني حصنه وقال: لا أنزل فيهلك المسلمون)(٢).

وقد نقل لنا مؤرخنا روايته على لسان صلاح الدين الأيوبي تجلت من خلالها مخاوف السلطان من ضياع الجهد العسكري المبذول الذي أجبر الأفرنج على قبول الصلح المشروط، برؤية سياسية وعسكرية بعيدة المدى، إذ يستغل العدو انشغاله بأداء فريضة الحج ومناسكها، فيطمع الأفرنج ولا يلتزمون بالصلح وبنوده ويمتد خطرهم على الأمة الإسلامية كلها، في الوقت نفسه كان حريصاً على " توفير الزاد والمال والكسوة للفقراء للالتحاق بركب الحجاج وتوفير الفنادق المناسبة لهم"(٣).

مخاطر قوافل الحج والحجيجوموقف صلاح الدين الأيوبي منها

أ-الطريق البري

لا يخلو طريق الحج البري بطبيعة الحال من مشقة وخطورة ترافق الحجاج في رحلتهم لأداء الحج وطلب العلم في كل درب يسلكونه ومنزل ينزلونه ،وبالتالي يكتسب الحاج أجره عند الله تعالى على مدى نيته وتحمله لمشاق السفر في رحلته وقسوتها وجُل ما يتعرض الحجاج في طريق الحج ومنازله هو قلة الماء أو انعدامه عند

(١) النوادر السلطانية، ص١٧٧ .

(٢) ابن شداد، المصدر نفسه، ص١٧٧ .

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧٨.

اختراقهم للأراضي الصحراوية مما قد يؤدي الى هلاك الكثير من الحجاج فضلاً عن تأثير الحر وسمومه، وطول الطريق وصعوباته، وما يتخللها من كوارث طبيعية سواء صيفاً أو شتاءً ، وهجمات الأعراب المتواصلة، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار لبطيء مسير قوافل الحج كون " وأكثر المسافرين يركبون الإبل على أحمالهم من مشقة سموم الحر غماً ومشقة"(١).

مما قد يؤدي إلى تأخر الحجيج عن أداء مناسكهم، " ففي سنة ٥٣٥هـ أصاب الحجاج عطش شديد، فمات بسببه جمع منهم ،ومن نجا منهم تأخر في وصوله ففاتته وقفة عرفة"(٢).

فتنبوأت مشكلة المياه موقع الصدارة فيما يعانيه الحجاج ليس فقط بسبب قلة المياه فحسب بل قد تكون المياه غير صالحة للشرب لكثرة القاذورات أو بسبب مرارة الماء التي لا تطاق، فيضاعف من معاناتهم الأمر الذي يجعل توفير المياه الصالحة للشرب أمراً حيوياً مهماً، مما قد يؤدي نقصه الى نشوب النزاعات والمشاجرات بين أصحاب القوافل الواردة إلى طريق عيذاب وهذا ما صوره لنا (ابن جبير) قائلاً: " وفي هذا الماء وقعت بين بعض جمالي العرب اليمنيين أصحاب طريق عيذاب وضمانها وهم من بلي من أفخاذ قضاعة ،وبين بعض الأغزاز بسبب التزاحم على الماء ، مهاوشة كادت تفضي إلى الفتنة ثم عصم الله منها"(٣).

ليسقوا جمالهم من الماء وحجيج قوافلهم والتنافس للوصول للماء لمشقة الطريق والحر الشديد، " ما دفع الملوك الأيوبيين والمتنفذين والميسورين إلى الحرص على توفير المياه على طول طريق الحج وتوفير خزانات ومناهل الماء للحجاج"(٤).

وعلى طول دروب الحج ومنازلها تسير القوافل صادرة وواردة في صحراء عيذاب والمفاوز فيها معمورة وينزلها الحجاج من مصر والشام وإفريقيا والمغرب "ولا يسافر في

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٥٥ ؛ الجزيري، الدرر، ص٢٤٧.

(٢) ابن قاضي شهبة : ابو الفضل محمد الأسدي (ت : ٨٧٤هـ)، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق : محمود زايد، ط١، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧١، ص١١٢.

(٣) رحلة ابن جبير، ص٥٥.

(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص٨٧ ؛ الجزيري، الدرر، ص٢٧٨.

هذه الصحراء إلا بالإبل ، لصبرها على الظمأ ،وأحسن ما يركب عليها ذوو الرفاهية الشقاديف، وأحسن أنواعها اليمانية ،وأكثر المسافرين يركبون الإبل على أحمالها فيكابدون من سموم الحر عناء ومشقة"[١] ، فمن يقصد طريق الصحراء البري لابد أن يتزود بالماء في مسالك رحلته الطويلة فضلاً عن الحر وسمومه أثناء رحلتهم.

وفي سنة (٥٩٢هـ) تعرضت قوافل الحج والحجيج للرياح السوداء والرمال الحمر أثناء عودتهم من الديار المقدسة فجاء في إحدى الروايات التاريخية (وبعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمت الدنيا ووقع على الناس رمل أحمر ،ووقع من الركن اليماني قطعة وتجرد البيت الحرام مراراً) [٢] مما سبب الخوف والارتباك في سير تلك القوافل.

ومن مصاعب الطريق البري أن يسلكون أصحاب القوافل والوسطاء بالحجيج وجود طرق وعرة جداً خالية من الآبار والعيون ربما ليتجنبوا التزاحم في مسالك قوافل الحج والحجيج فيلجأون إلى السير في طرق أخرى من دون الحرص على سلامة الحجاج ومراعاة توافر مستلزمات رحلتهم، فيموتون عطشاً ومشقة الطريق بالمشي في أرض جرداء وهذا الأمر تؤكده الرواية التي بين أيدينا، فجاء فيها: "فينزل إليهم البجاة*

(١) الجزيري، الدرر، ص٢٤٧.

(٢) الجزيري، المصدر نفسه، ص٣٦٢.

* البجاة : قبائل تسكن الصحراء الشرقية من مصر، وهم نوع من السودان ساكنوا الجبال،ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها من الجهة الغربية من عيذاب، واصلها الأحباش، تميزوا بقسوتهم واستغلالهم للحجاج فيسلكون بهم عبر طريق الماء ورجالهم ونسائهم يتصرفون عراة الا خرقاً يسترون بها عوراتهم، ربما لطبيعة مناطقهم الحارة، للمزيد ينظر:

ابن جبير، رحلة جبير، ص٥٨-٥٩ ؛ القزويني : محمد بن محمود (ت : ٦٨٢هـ)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠، ص١٨ ؛ التجيبي، القاسم بن يوسف بن محمد (ت : ٧٣٠هـ)، مستفاد الرحلة والاغتراب ، تحقيق : عبد الحفيظ منصور، ليبيا، الدار العربية للكتاب، بلا .ت، ص٢٠٧ ؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٤-١٩٧؛ الجزيري، الدرر، ص٢٤٨.

،وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال، فيكرون منهم الجمال ويسلكون بهم غير طريق الماء ، فربما ذهب أكثرهم عطشاً ... وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه فيضل ويهلك عطشاً "[١].

مخاطر الطريق البحري:

وتبدأ الرحلة الثانية لقوافل حجاج مصر والمغرب والتكرور فتسير من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي إذ يعبرون الصحراء الشرقية إلى ميناء عيذاب ومنها يعبرون إلى البحر الأحمر إلى جدة بواسطة الجلاب[٢].

ولم تقتصر مخاطر الطريق البحري على الرياح والعواصف الرعدية فحسب فكان للصخور النائتة والشعب المرجانية على سواحل البحر[٣] فعلها المؤثر في تصادم الجلاب وغرقها.

وقد يتعرض الحجاج إلى خطر الكوارث الطبيعية في البحر أثناء عبورهم من عيذاب إلى جدة وقد أشار (ابن جبير) إلى هذا الأمر قائلاً "والركوب من جدة اليها آفة للحجاج عظيمة ...وذلك أن الرياح تلقيهم على الأكثر في مراس بصحارى تبعد منها مع يلي الجنوب"[٤].

ومن خلال تتبعنا الدقيق – للروايات التاريخية حول طرق الحج والحجيج في عهد صلاح الدين الأيوبي ، نستطيع أن نتلمس عمق تحمل الحجيج وطول صبرهم على معاناتهم وهذا ما ينطبق على الحاج المصري والإفريقي والشامي ولأهل مصر وإفريقيا والمغرب النصيب الأوفر في تلك المخاطر والمعاناة ، فقد يؤدي إلى التزاحم في نقل الحجاج وما يتعرضون له من مهانة واستغلال أثناء العبور بحراً من عيذاب إلى جدة وردهم وقت انقضاء مراسيم الحج ، فقد روي :

" ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ، يحمل

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٥٨.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٥٨ ؛ الجزيري، الدرر، ص٢٤٩.

(٣) الجزيري، الدرر، ص٥٥٣ .

(٤) رحلة ابن جبير، ص٥٧-٥٨.

أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك "[١].

مما يدفع بعض الحجاج إلى " تغيير مسيرهم عند انفضاض الحج عن طريق الشام إلى العراق ،ويصل مع أمير الحج البغدادي إلى بغداد ومنها إلى عكة فإن شاء دخل منها إلى الاسكندرية ... وأن طال طريقة بهذا التحليق فيهون لما يلقى بعيذاب ونحوها"[٢].

فضلاً عما يدفعونه من ضرائب حمل طعامهم ومؤنتهم ، مما يدفع الحجيج الى تغيير مسالك عودتهم من الحجاز ، حسب ما علمنا من شديد معاناتهم في الركوب من عيذاب– جدة الذي يستغرق (٢٣ يوماً) وما يتخللها من سوء المعيشة وقلة الغذاء وحرارة الجو ،وهذا ما تؤكده الرواية التي بين أيدينا والتي جاء في ثناياها : (ومن عيذاب يكون ركوب الجلبة إلى جدة فكانت أقامتنا بعيذاب ثلاثة وعشرين يوماً في شرحال ،وعيش رديء واختلال في الصحة لقلة الغذاء ،وهواء حار يذيب الأجسام)[٣].

مخاطر الفتن بين القبائل وهجوم الأعراب على قوافل الحج:

واجه الحجاج المسلمون في طريق حجهم مخاطر داخلية تمثلت في هجوم الأعراب الساكنين مابين مكة والمدينة وغاراتهم من جهة وخطر القبائل المستمرة على طوال طريق الحج والحجيج دون مراعاة لحرمة فريضة الحج وحجاج بيت الله الحرام من جهة أخرى . ويبدو أن لأمير مكة وأشرافها اليد الطولي في هذا المضمار بتأييد ممارساتهم والتحريض عليها لأسباب مادية بحتة مستخدمين أسلوب الترهيب للحجاج وقوافلهم .

ففي سنة (٥٢٤هـ) ، " أغارت الأعراب على جماعة من الحجاج ، فسلبوا أمتعتهم فبقوا حفاة ففاتتهم الرفقة مع باقي الحجاج"[٤].

---

(١) ينظر : ابن جبير،رحلة ابن جبير، ص٥٨ ؛ الجزيري، الدرر، ص٢٤٩.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٥٨–٥٩.

(٣) الجزيري، الدرر، ص٢٤٩.

(٤) ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت : ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الهند،مطبعة جيدر آباد،الدكن، ١٩٣٩م، ج١٠، ص٩١.

وفي عام (٥٥٣هـ) "وعندما انتهى الحجاج من أداء فرضهم وصلت الأخبار بأن الأعراب قد أجتمع في الطريق لاعتراضهم ، مما اضطرهم إلى تغيير طريقهم فسلكوا طريق خيبر "[١]. لتأمين حياتهم ودفع ضرر أولئك الاعراب ورغم قساوة الطريق ومشقته إلا أنهم تخلصوا من هجمات الأعراب وخطرهم.

وضمن أحداث سنة (٥٥٦هـ): " وبعد نزول الحجاج من عرفة ، خرج عليهم عبيد مكة فنهبوهم، فتوجهوا إلى المدينة ،ولم يطف أحد بالبيت ولم يَّسع خوفاً من العبيد"[٢]، مما منع الحجاج من أداء مناسكهم بالطواف بالبيت الحرام والسعي بين الصفا والمروة.

ويبدو أن جُل هجمات القبائل والأعراب تحظى بتأييد وتحريض شريف مكة ليضمن لنفسه ورادات وضرائب وغنائم مستمرة ،وللضغط على أولي الأمر من الخلفاء والسلاطين لتقديم العطاءات والهبات له ، مقابل ضمان أمان الحجاج وقوافلهم .

وفي سنة (٥٧٢هـ): " أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى أمير مكة الغلات والأموال والعطايا الوفيرة ولا يخص به خاص دون عام"[٣] ،وهنا يبرز دور صلاح الدين الأيوبي وموقفه الشجاع مما تتعرض له قوافل الحج والحجيج من انتهاك للحرمات فحاول جاهداً التصدي لاعتراض القبائل على طريق الركب الشامي والمصري ،ودرء خطرها، فقام بدفع الاعطيات التي تفرضها على الحجيج ، مما جعل طريق الحج أكثر أمناً .

وفي سنة (٥٨١هـ): (وفي رمضان قدم مكة الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، صاحب اليمن ، فاستولى عليها وخطب بها لأخيه صلاح الدين بن أيوب وضرب الدنانير والدراهم باسم أخيه ،وقتل جماعة من العبيد الذين كانوا يؤذون الناس وشرط على الباقي منهم ألا يؤذوا الحاج)[٤].

---

(١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٠، ص١٨٢.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الجنان، ج٨، ص٢٤١.

(٣) للمزيد ينظر : القلقشندي : أبو العباس احمد بن علي (ت : ٨٢١هـ)، صبح الاعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، ج٧، ص١١٤-١١٥.

(٤) الجزيري، الدرر، ص٣٦١.

مما تقدم نستنتج أن قوافل الحج والحجيج قد اكتسبت عناية وأهمية استثنائية في عهد صلاح الدين الأيوبي وأنعم عيها بالأمان والاهتمام كلما تصله الأخبار مما يلحق بحجاج بيت الله الحرام من أذى ومهانة فأضفى على الحجاج اهتماما جاداً يليق بهم في الوقت الذي كان فيه مشغولاً في جهاده ضد الغزو الصليبي وحملاته المتكررة.

وتطالعنا المصادر التاريخية برواية غاية في الأهمية حول الفتنة العظيمة التينشبت بين الحجاج العراقيين والشاميين، ذهب ضحيتها الأمير ابن المقدم*، الذي طلب الإذن من السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ليحج ويحرم من القدس للمسجد الحرام بعد تحرير بيت المقدس فأجابه الناصر إلى طلبه ،وذلك سنة (٥٨٣هـ):

" ووقعت الفتنة في يوم عرفه بين العراقيين والشاميين وكان قد اجتمع في هذه السنة حاج عظيم بالشام، من بلاد العراق والموصل والجزيرة وخلاط وبلاد مصر وغيرها ليجمعوا بين زيارة القدس ومكة وكان الأمير عليهم شمس الدين .. المعروف بابن المقدم ، ... فلما كان عشية عرفة ضرب كوساته*، ورفع علم السلطان صلاح الدين، فأرسل إليه أمير الحاج العراقي طاشتكين ينهاه عن الإفاضة من عرفات قبله، ويأمره بكف أصحابه عن ضرب كوساته وقال له: هذا موضع لا يرفع فيه إلا علم الخليفة ... "[1]. واحتدم الصراع بين الطرفين بسبب تقديمه علم السلطان صلاح الدين

---

* ابن المقدم : هو الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم أحد أكابر الأمراء الصلاحية،وقد تمرس على القيادة منذ العهد النوري، اقطعه صلاح الدين بعلبك سنة (٥٧٢هـ)، ولما حرر بيت المقدس نشب صراع بينه وبين فخر الدين طاشتكين أمير الحج العراقي، انتهى بمصرعه اثر إصابته بسهم في عينيه أثناء موسم الحج سنة (٥٨٣هـ) . للمزيد ينظر :

أبو شامه، الروضتين، ج٣، ص٢٧٤ ؛ ابن واصل،مفرج الكروب، ج٢، ص٢٥٠ ؛ الجزيري، الدرر، ص٣٦١ -٣٦٢.

* كوساته : وتعني أمارة الرحيل.

[1] أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٧٤ ؛ ابن وصل،مفرج الكروب، ج٢، ص٢٥٠ ؛ الجزيري، الدرر، ص٣٦١-٣٦٢.

في عرفة على علم الخليفة الناصر لدين الله العباسي، كونه عدَّه تجاوزاً على مكانة الخليفة ممثلة بقافلة الحج العراقي، مما أثار الفزع بين الحجاج وإرباك واضح في مراسيم الحج وشعائره، قُتل على أثرها ابن المقدم.

ويبدو لنا مما تقدم – بأن وظيفة أمارة ركب الحج المصري والشامي كان يتولاه قادة العصر الأيوبي بأنفسهم بتفويض من السلطان صلاح الدين الأيوبي ، مما دفعهم للصدام مع أمير الحج العراقي المفوض من قبل الخليفة نفسه بالزعامة على جميع قوافل الحج الأخرى بما فيها القوافل الأيوبية سواء من مصر أو الشام وإفريقيا ، المغرب ، الاندلس واليمن فلا يحق لأحد أن يتجاوز الخليفة ويرفع رايته على جبل عرفات اعترافاً بسيادة ومركز الخليفة العباسي أو الخضوع له ،والتي كان السلطان صلاح الدين كثيراً ما يحترمها ويحرص على عدم المساس بها لإدراكه العميق للمكانة الدينية والسياسية للخليفة في نفوس المسلمين.

ضريبة المكوس وموقف صلاح الدين منها:

لم تقف مخاطر الحج وقوافل الحجيج على شح الماء وحرارة الجو والكوارث الطبيعية التي قد يواجهونها، بل تعدتها لاستغلال حجاج بيت الله الحرام الإعارة من قبل الأعراب والقبائل القاطنة في دروب الحج ومسالكه وما يتعرضون له من نهب وسلب وقتل، بل تعدتها الى فوض رسوم مالية على كل حاج كضريبة المكوس* التي تفرض عليهم عند وصول الحاج إلى قوص وعيذاب لجدة بأسلوب لا يخلو من التعسف وسوء المعاملة مع غرباء انقطعوا مهاجرين إلى حرمه الأمين ، فيمنع الحاج من العبور الى جدة ما لم يدفع المكس " فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيدائها عنتاً مجحفاً ويسامون فيها خطة خسف باهضة ... وكانت سبعة دنانير

---

* المكس : ضريبة واصلها الجباية تفرض على الحجاج القادمين لجدة على إنها زكاة دون مراعاة نصابها الشرعي من قبل أمير مكة قبل أداء فريضة الحج،ويطلق على مستوفيها الماكس أو العاشر وعادة ما تودع في بيت المكس، للمزيد ينظر :

ابن سلام : أبي عبيد القاسم (ت : ٢٢٤هـ)، كتاب الأموال، شرحه: عبد الأمير علي مهنا، ط٦، بيروت، دار الحداثة للطباعة، ١٩٨٨م، ص٤٩٣ ؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٤٦–٥٢، أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٧٩ ؛ الجزيري، الدر، ص٢٤٨.

ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس ،ويعجز عن ذلك، فيتناول أليم العذاب بعيذاب"[١] .

فبادر السلطان العادل صلاح الدين الأيوبي إلى إلغاء هذه الضريبة عن حجاج بيت الله الحرام ،وعوض أمير مكة بالمبلغ المقدر، فضلاً عن الأعطيات والهدايا والأرزاق، "فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها ،وعين مجبياً معيناً بأمره * ، لذلك ،وتكفل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز لأن الرسم المذكور كان بأسم ميرة مكة والمدينة، وعمرهما الله ، فعوض من ذلك أجمل عوض ،وسهل سبيل للحجاج"[٢].

وبهذا الإجراء المسؤول أزال صلاح الدين الأيوبي عبئاً مادياً ومعنوياً ثقيلاً ومهماً من الحجاج ومعاناة قوافلهم في جبايتها فقرر تعويض أمير مكة بالأقوات وغيرها، وليضمن تطبيق الأمير،لاتفاقه عين جابياً مشرفاً عليها ومعُيناً من قبله ويضمن وصولها للأمير ،كما "حرص صلاح الدين على أرسال المؤن السنوية للحجاز"[٣] ،ويبدو أن انشغال الناصر صلاح الدين في حروبه مع الصليبين في جهة الشام قد منح المجال لأمير مكة ليتعسف ويكثر الفساد مع الحجاج وقوافلهم .

وجاء في أحدى الروايات التاريخية أن " المكوس تؤخذ على عدد الرؤوس ، فإذا وصل الحاج ، يحبس حتى يؤدي مكسه فتفوته الوقفة بعرفه ولا يدركها"[٤] ولو تأخر وصول الأموال والطعام والعطايا التي يرسلها صلاح الدي الأيوبي لأمير مكة ، يعود لترهيب الحجاج "فمتى أبطات عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاج وإظهار تثقيفهم بسب المكوس"[٥].

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٤٦.

* بأسره : ولعله يقصد بأمره (وهو الأصوب)

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٤٦.

(٣) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٧٩.

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٣٣٨.

(٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٦٣.

ويصف ابن جبير ساحل ميناء عيذاب كونه أحفل مراسي الدنيا فيصور لنا تعامل أهلها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة قائلا : " لهم على كل حمل طعاماً يحملونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة بالإضافة إلى الوظائف المكوسية التي ذكرنا سابقاً رفع صلاح الدين لها"[١].

وهناك أشارة جديرة بالذكر تؤكد اهتمام صلاح الدين الأيوبي وشديد عنايته كونه أولى اهتماما بالحجاج المجاورين الذين يجاورون بيت الله الحرام ويمكثون فيه لفترة طويلة بعد انقضاء مراسيم الحج للاعتكاف بالمساجد وطلب العلم وتحصيله ، فاهتم صلاح الدين بالمجاورين والفقراء في مكة والمدينة ،" قرر صلاح الدين أرسال الغلات إلى المجاورين والفقراء بمكة والمدينة "[٢].

فأضحت الضرائب عبئاً ثقيلاً يعاني منه الحجيج وقوافلهم في طريق الحج ومنازله فكانت الضرائب تفرض " على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس فضلاً عما سواه ، فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن "[٣]، فتجبى الضرائب عن طريق عيذاب وصولاً إلى بلاد الحجاز " فالحاج معهم لايزال في غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله رجوعه الى وطنه ... فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة في سبيل الله هذه البلاد الحجازية لما هي عليه من حل عُرى الإسلام واستحلال أموال الحاج ودمائهم "[٤].

ويبدو أن ما دفع الرحالة أبن جبير للتحامل على أهل الحجاز حينها ووصفهم بهذا الوصف لما رآه من تعسف وظلم ومهانة قاسى منها الحجاج المسلمون وقوافلهم الواردة والصادرة إلى جدة حينها.

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٧ ؛ الجزيري، الدرر، ص٢٤٨ .

(٢) أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٧ ؛ السيوطي : جلال الدين (ت : ٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، بيروت، دار إحياء الكتب العلمية، ١٩٦٨، ص١٩.

(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٤٦، ص٤٧.

(٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٦٣.

وبين أيدينا نص الرسالة التي أرسلها صلاح الدين الأيوبي إلى شريف مكة [*] رداً على شكره للسلطان الذي أرسل إليه الغلات والأموال بعد أن ألغى ضريبة المكوس سنة (٥٧٢هـ) جاء فيها:

" وصل كتابك ،. أيها الشريف معبراً عن المشايعة الشائعة أبناؤها، والمخالصة الخالصة أسرارها الوافرة أنصباؤها ، وحسان الخلال ، التي أقسم طرفا الحمد إعادتها وإبداؤها ... فأما ما أشار إليه من الشكر على ما سير من الغلات التي كان الوعد بها علينا نذراً وروحاً بإرسالها قلباً وشرحنا بتسييرها صدراً ... واقتضى ما يعرضه أن خرج الأمر بأن يضاعف المحول في كل عام ،ولا يخص به خاصٌ دون عام ،وأمرنا أن يوفر جلب الجُلاب ،وتوقر ظهور الركاب، ليجمع للحرم الشريف بين بر البر والبحر ،وبين حمل البطن والظهر ، فتظل السنة ودوداُ ولوداً ،ويشاهد المحل الشريف وقد نأى عنه المحل شريداً، وتحط القلوع عما يحط عنه أمثالها من السحائب وتستريح الأنفس اللواغب ... إن شاء الله تعالى "[١] .

نستنتج مما تقدم من رسالة صلاح الدين الأيوبي عدة أمور منها :

١. حرص صلاح الين الأيوبي الشديد على رفع الظلم والذل والتعسف بالضرائب غير الشرعية عن حجاج بيت الله الحرام ،ورعاية الحجاج عند وصولهم الحرم المكي.
٢. اعلاء شأن الدين الإسلامي وقدسيته في نفوس المسلمين ،وترسيخ قيمة أركانه وهيبتها وتعزيز مكانتها .

---

[*] هو مكثر بن عيسى بن فليته الهاشمي الحسني، أخر أمراء مكة الهواشم من بني فليته، عهد أبوه بالإمارة لأخيه دواد بن عيسى سنة (٥٧٠هـ) وعزله الخليفة الناصر لدين الله العباسي سنة (٥٧١هـ) ووليها مكثراً، ثم أعيد داود وظلت الإمارة تتراوح بينهما حتى وفاة داود سنة (٥٨٩هـ) فانفرد بها مكثر إلى سنة (٥٩٧هـ) بعد أن انتزعها منه الشريف قتادة بن إدريس لظلم بني فليته وكثرة اللهو والجور،وبه انقرضت دولة بني فليته، للمزيد ينظر : أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٧، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص١١٤.

(١) ينظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص١١٤ -١١٥.

٣. رفد الحركة التجارية وتشجيعها بتقليل القيود الضريبية عنها .
٤. الشعور بالأمان حفز العديد من المسلمين للأقبال على رحلات الحج والحجيج، بعد أن رفع عنهم الناصر صلاح الدين العبء المادي والمعنوي عن كاهلهم .
٥. تعزيز سلطة ونفوذ صلاح الدين الأيوبي في الحجاز وتوطيدها مما أفسح المجال أمامه واسعاً لمراقبة طرق التجارة والحج للحجاز وتأمين سلامتها وسلامة قوافلها، مما زاد من التفاف المسلمين حوله لعدله وشجاعته.
٦. أكد صلاح الدين الايوبي أن هذه العطايا والهبات السنوية الممنوحة في تزايد وتضاعف كل عام ،مؤكداً أن فائدتها عامة لجميع المسلمين بالحجاز الخاص والعام على حد سواء.
٧. حرصه على توفير المراكب والجلاب كل عام التي تنقل الحجاج بحراً ،ولتكون حلقة الوصل ما بين البر والبحر للحرم النبوي الشريف على شرط أن تحفظ للحاج كرامته اثناء الركوب بتلك الجلاب .

اما رسالته الثاني التي أرسلها الناصر صلاح الدين لشريف مكة مكثر بن فليته سنة (٥٨٤هـ) لا تخلو من الوعيد والترهيب أثر عودته في سياسته بظلم الحجاج وسوء معاملتهم ، جاء من خلالها:

" بسم الله الحرمين الرحيم ، أعلم أيها الأمير الشريف ، أنه ما أزال نعمة عن أماكنها، وأبرز الهمم عن مكامنها ،وأثار سهم النوائب عن كنانتها ، كالظلم الذي لا يعفو الله عن فاعله ،والجور الذي لا يفرق في الإثم بين قائله وقابله ، فأما وهبت ذلك الحرم الشريف ،وأجللت ذلك المقام المنيف ،وإلا قوينا العزائم وأطلقنا الشكائم ،وكان الجواب ما تراه لا ما تقرأه ، وغير ذلك، فأنا نهضنا إلى ثغر مكة المحروسة في شهر جمادي الأخرى طالبين الأولى بالأخرى، في جيش قد ملأ الأسهل والجبل ،وكظم على انفاس الرياح ، فلم يتسلل بين الأسل وذلك لكثرة الجيوش ،وسعادة الجموع ،وقد صارت عوامل الرماح تعطي في بحار الدرر "[1].

(١) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٩٣ ؛ الفاسي، محمد بن احمد المكي (ت:٨٣٢هـ)، العقد الثمين في تاريخ البلد ألأمين، تحقيق : محمد عبد القادر، ط١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨، ج٧، ص١١٤.

مما يعكس موقف السلطان صلاح الدين الحازم تجاه أمن وراحة الحجاج وقوافل الحجيج ورعايته لأهلها .

" فأعلن مكثر بن عيسى بن فليته الحسني بأن الخطبة تكون للخليفة العباسي ثم لصلاح الدين ، طمعاً في منحه العطايا"[1] ،وبذلك أصبحت للأيوبيين سيادة على مكة بشكل غير مباشر حتى لا يثير غضب الخليفة العباسي ،وكسب وده وللتفرغ للقضاء على الخطر الصليبي والفتن الداخلية في مصر والشام والجزيرة الفراتية.

مخاطر الغزو الصليبي وموقف صلاح الدين منه :

أدرك صلاح الدين الأيوبي البعد الاستراتيجي لخطر الصليبيين وحصونهم وقلاعهم على طريق الحجاج المسلمين فكان شديد الحرص على تأمينها وإسعاف أهل الحرمين بالعون المادي والعسكري لتعزيز طرق الحج ، فبعد وفاة نور الدين زنكي رأي صلاح الدين ضرورة مد النفوذ الأيوبي الى بلاد الحجاز لما لها من أهمية وقدسية في العالم الإسلامي ،ولم يعمد صلاح الدين إلى السيطرة على الحجاز سياسياً وضمها لسلطته ، واستبدل أمراءهم، بل بتوثيق العلاقة فيما بينهم ودعمها لضمان راحة ركب الحج وقوافله ،وتأمين مسيرها وتأمين راحة الحجاج اثناء موسم الحج ، وليعطي لسلطته الصبغة الشرعية والروحية لكسب مؤيديه والاعتراف بدولته وحربه ضد الصليبيين ونصرة الجبهة الإسلامية، وأعقبها بخطوة غاية بالأهمية تمثلت في توجيه جهوده للقضاء على الحصون الصليبية على طول طريق الحج مابين مصر وبلاد الشام التي شكلت خطراً حقيقياً على طرق القوافل التجارية وقوافل الحجيج ،وفي مقدمة هذه الحصون هو (حصن الكرك)* ، فكانت لصلاح الدين الأيوبي عدة محاولا لمهاجمة الكرك ومحاصرتها.

ففي سنة (٥٦٨هـ): " وجه صلاح الدين جهوده لتأمين طرق المسلمين بالتجارة والحج بالسيطرة على حصن الكرك ومهاجمته كونه يعرقل طرق التجارة والحج ، فلا

---

[1] الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٤١.

* الكرك: أسم لقلعة حصينة للأفرنج على طريق الشام وتقع بين أيلة والبحر الأحمر والبيت المقدس، للمزيد ينظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله (ت : ٦٢٦هـ)،معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٩٥ م، ج٧، ص١٣١.

يستطيع أحد السير من مصر إلى الشام إلا بموافقة الأفرنج وأميرهم البرنس أرناط**"[1].

الذي طالما ينقض اتفاقه والهدنة التي يعقدها مع صلاح الدين، ففي سنة (٥٧٧هـ) قاد عسكره على البحر الأحمر للسيطرة على الممر التجاري المهم للعالم الإسلامي، وفي تلك السنة " وفيها عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول (ﷺ) للاستيلاء على النواحي الشرقية ،وسمع بذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق، فجمع جموعاً ،وقصد بلاد الكرك ،وأغار عليها، وأقام في مقابلة البرنس، ففرق البرنس جموعه، وانقطع عزمه عن الحركة"[2]، فكانت المحاولة الأولى لكنها فشلت.

مما دفع صلاح الدين للحرص على اقامة الحصون والقلاع المتفردة بخصائصها ذات الابراج المحصنة على المسالك والدروب الرئيسية في جزيرة سيناء لسببينً مهمين:

١. تأمين الطرق التي تسلكها الجيوش الإسلامية وتحصين الثغور البحرية والبرية شمال سيناء من خطر الصليبين ، والتقليل من نفوذهم في مصر وبلاد الشام.
٢. حماية طرق التجارة والحجيج من جنوب سيناء ، للمحافظة على شطري الدولة الأيوبية ما بين مصر وبلاد الشام كخطوة عسكرية دفاعية ، مما ساهم في تحرير بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ) ، وتأمين طرق الحج إلى الحجاز .

** أرناط : حاكم القلاع الجنوبية في الكرك،ويسمى بالمصادر الأوربية ب (رينالد شاتيون)، أسرّة نور الدين زنكي سنة (٥٥٦هـ)، ثم أطلق سراحه بعد ستة عشر عاماً، فكان من شياطين الأفرنج واخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين دائم الغدر ونقض العهود أراد السيطرة على مكة والمدينة وقطع طرق الحج،وقع أسيراً في موقع حطين وقتله صلاح الدين سنة (٥٨٣هـ) للمزيد ينظر أخباره في:

ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٠٧ وما بعدها، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٣٤٣ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣٨.

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٤٥، أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٥٦-١٥٧.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٠٧.

فبادر صلاح الدين الأيوبي إلى إنشاء قلعة آيلة صلاح الدين المسماة بـ (جزيرة فرعون) وتعد من أهم المعالم الأثارية والعمرانية الإسلامية في سيناء " أنشأها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ بعد تكرار محاولات أمير الكرك غزو بلاد العرب وانتهاك حرمة البيت الحرام)[1].

فأقيمت على نتوئين بارزين في جزيرة سيناء ، وتحوي القلعة ثكنات للجند ومخازن للسلاح ، ومؤونة للطعام وغرف للسكن وحمام ومسجد ، وتكمن خصوصية موقعها الجغرافي إذ يقع على رأس خليج العقبة ملتقى التجار والحجاج وتتحكم بمركز الملاحة في خليج العقبة والبحر الأحمر ، وهذا سبب اختيار صلاح الدين لها.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٨١-١٨٢ ؛ القلقشندي، صبح الاعشر، ج١٣، ص٩٠-٩١ ؛ عبد المالك : سامي صالح، القلاع الأيوبية في سيناء وإستراتيجية الدفاع عن الصحراء (دراسة آثارية معمارية)، القاهرة، ٢٠١٢، ص٢٩٢.

مدخل قلعة ايلة صلاح الدين:

وضمن أحداث سنة (٥٧٨هـ) أشار أبن شداد قائلاً :

" وفي هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولاً في بحر أيلة وسار في البرح فرقتان ، فرقة قامت على حصن أيلة يحصرونه ،وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل ،وباغتوا المسلمين في تلك النواحي ... وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائباً عن أخيه السلطان ، فعمر أسطولاً في بحر عيذاب ، وأرسله مع حسام الدين الحاجب لولؤ وهو متولي الأسطول بديار مصر ،وكان مظفراً شجاعاً "[١] وأضاف قائلاً " فسار لولؤ مجداً في طلبهم وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية وكانوا قد عزموا على دخول الحجاز ومكة والمدينة ... وقتل لولؤ أكثرهم وأخذ الباقين أسرى "[٢].

وكانت الغاية من تحركه العسكري ومحاولته الثانية ، مباغتة سواحل المسلمين من جهة بحر ايلة لقطع الطريق للحجاز ،وقطع طرق التجارة والحج على المسلمين

---

(١) ابن شداد، المصدر نفسه، ص٢٠٩.

(٢) ابن شداد، المصدر ننفسه، ص٢١٠.

في ميناء عيذاب وقتل ونهب الحجاج وحرق مراكبهم " فقد استولى الأسطول الصليبي على سفينة قادمة من جدة ،وهاجم أخرى كانت قادمة من قوص إلى عيذاب وقتل جميع من فيها"[١]

وفي سنة (٥٨٢هـ) : نقض البرنس أرناط عهود الهدنة مع صلاح الدين وقام بالهجوم على قوافل التجار والحجاج المسلمين ، فجاء في إحدى الروايات التاريخية ضمن أحداث هذه السنة (وفي هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم فأرسل السلطان يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك ، فلم يفعل فنذر السلطان أنه إن أظفره الله به قتله بيده)[٢].

وقد أشارت المصادر الآثارية والمعمارية إلى قلعة صدر الجندي في عهد صلاح الدين الأيوبي. " وأنشأها ما بين سنة (٥٧٩- ٥٨٣هـ) حسب آخر نقش بالقلعة على بوابتها الشمالية ،وتقع القلعة على طريق صلاح الدين المار بوسط سيناء الشهير بطريق صدر وآيلة ،وتحتل القلعة قمة جبل مخروطي منفصل عما حوله يعرف باسم تل شيبة رأس الجندي"[٣]، فسميت به .

ولم نجد لهذه القلعة أي أشارة في المصادر التاريخية سوى ما ورد في النقوش الآثارية والمعمارية .

ويبدو أن القلعة قد صممت بهذا الشكل ليصعب تسلقها ومهاجمتها في أعلى التل " ومحاطة بخندق ،والقلعة قريبة من عين ماء تسمى صدر لا يزال أهل سيناء يستقلونها وتتكون من عدة مستويات كل مستوى مخصص لغرض حربي أو مدني معين "[٤].

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٤٩ ؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص٧٨.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢١٥ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٩٤.

(3) عبد المالك : سامي صالح، حماما قلعتي صلاح الدين الأيوبي صدر وآيلة في سيناء، دراسة آثارية معمارية، مشكاة المجلة المصرية للآثار الإسلامية، ع:٣، القاهرة، المجلس الأعلى للآثار، ٢٠٠٨ م، ص٤٥-٥٢ ؛ القلاع الأيوبية والمملوكية في سيناء وإستراتيجية الدفاع عن الصحراء، دراسة آثارية معمارية.

(4) هاني الأسمر، طريق صلاح الدين الحربي بسيناء، مجلة الأهرام، مصر، بلا ت، ص٢.

قلعة رأس الجندي من الداخل

مصلى قلعة رأس الجندي

قلعة رأس الجندي من الخارج

قلعة عجلون سنة (٥٨٠هـ):-

ومن القلاع الإسلامية التي حرص على بنائها صلاح الدين الأيوبي قلعة عجلون " وأشرف على بنائها أحد قادته عز الدين أسامة سنة ٥٨٠هـ ،وسميت بعجلون نسبة لوجود راهب اسمه عجلون يسكن ديرا قديماً مكان القلعة فسميت القلعة باسمه ثم المدينة"[١].

وتقع بالركن الشمالي الغربي من الأردن ، واستمدت أهميتها الجغرافي والعسكرية كونها:

١. تشكل حلقة الوصل ما بين بلاد الشام والعراق من جهة وبين مصر من جهة ثانية.
٢. تعتبر ممراً تجارياً مهماً للقوافل التجارية بين دمشق والقاهرة ، وقوافل الحج من بلاد الشام إلى الحجاز ، بسبب سيطرة العدو الصليبي على فلسطين وقلعتي الكرك والشوبك جنوب الأردن.
٣. وفرة موادها الاقتصادية وانتعاشها السبب في اختيار صلاح الدين الأيوبي لها فضلاً عما تقدم – كونها – مصدراً للجيوش الإسلامية بالمؤونة والغلال "فأضحت محطة انطلاق لجيوشه لتحرير بيت المقدس سنة(٥٨٣هـ) في معركة حطين الفاصلة " [٢].
٤. وفرت القلعة الحماية وتأمين طرق القوافل للحجيج التي تعتبر منطقة عجلون من بلاد الشام إلى الحجاز أثناء ذهابهم وأيابهمٍ.

---

[١] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٨٧ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص١٠٦ ؛ الدلالعة : عز الدين، عجلون في العصر الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٧، ص١٨١.

[2] ابن واصل،مفرج الكروب، ج٣، ص١٨٥.

قلعة عجلون

المصدر : الدلالعة : عز الدين ، عجلون في العصر الايوبي والمملوكي ، ص١٤٧

مما زاد من مخاوف صلاح الدين الأيوبي من تزايد هجمات الأفرنج على طرق التجارة والحج الرئيسية وانتهاك حرمة الحج وقوافل الحجيج والمساس بها ، وبالأخص في سنة (٥٨٣هـ) حيث استبد القلق بالسلطان صلاح الدين من مباغتته العدو الصليبي والغدر بقوافل الحج وكانت ضمنها أخته (ست الشام)* ، وأبنها حسام الدين ، فعمد صلاح الدين إلى مباغتة أرناط وعسكره قبل الهجوم على القافلة : " وفيها جمع السلطان العساكر وسار بفرقة من العسكر وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من

* ست الشام : وهي زمرد خاتون بنت ايوب بن شاذي، شقيقة تورانشاه بن أيوب، زوجة ابن عمها محمد بن اسد الدين شيؤكوه صاحب حمص، لها ولد اسمه حسام الدين عمر بن لاجين من زوجها الاول، كثيرة البر والإحسان، عرفت بحسن سيرتها وتدينها، للمزيد ينظر : ابن خلكان،وفيات الاعيان، ج٣، ص٤٩٠ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٦٤ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٤٦.

صاحب الكرك ،وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل ، فأغاروا على بلاد عكا ... ونزل على طبرية وفتحها عنوة بالسيف "[1].

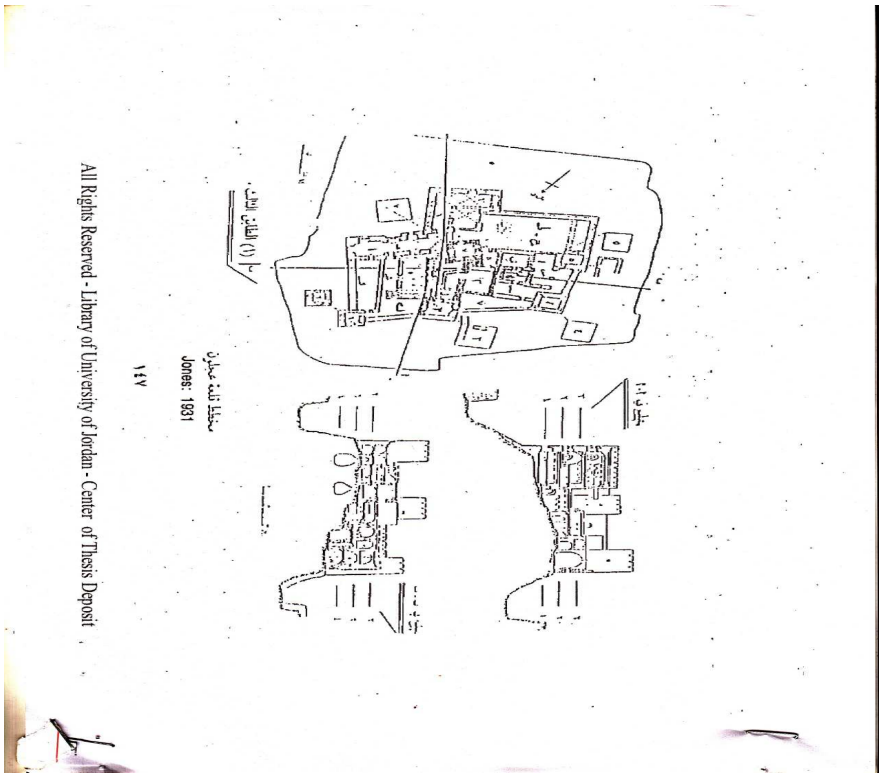

ومن خلال تتبعنا الدقيق للروايات التاريخية نجد أن صلاح الدين الأيوبي قد أولى فريضة الحج وطريق الحجاج أهمية قل نظيرها وخاصة في أيامه الأخيرة ،وهذا الأمر يؤكده لنا (ابن شداد) كونه كان قريباً من السلطان صلاح الدين في رواية غاية في الأهمية فسجل لنا الحوار الذي دار بينهما في سنة (٨٩٥هـ) فيه :

" ولما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده فسألني ... قال: ما الذي عندك من خبر الحاج ؟ فقلت : اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ،ولو

[1] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢١٥ ؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الجنان، ج٨، ص٣٨٩.

كثرة الوحل لدخلوا اليوم ، ولكنهم غداً يدخلون، فقال : نخرج – أن شاء الله – إلى لقائهم وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه فإنها سنة كثيرة الأنداء، ... ثم ركب في بكرة الجمعة وتأخرت عنه قليلاً ثم لقيته وقد لقي الحاج"[١].

مما يؤكد شديد عنايته وتتبعه الدقيق لرحلة الحج والحجيج حتى بعد عودتهم إلى أوطانهم ،ويشرف على تسهيل طريق عودتهم الذي ملء بماء الأمطار، بل أوعز بتنظيفه وجعله سالكاً للحجيج بقصد الأجر والثواب وأي تشريف وتكريم للحجاج وقوافلهم والسلطان صلاح الدين سيستقبلهم بنفسه ليطمئن على سلامتهم ويستفسر عن أحوالهم .

وفي نفس السنة (٥٨٩هـ) والتي توفي فيها ،وفي نفس الشهر " وأقام السلطان بدمشق وركب في يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج ... وقد اجتمعت بسبب ملتقى الحجاج وركوبه خلق عظيم ... ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج ،ووصل إليه مع الحاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن"[٢].

---

(١) النوادر السلطانية، ص١٨٣.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٢٨ ؛ ابي الفداء، المختصر في اخبار البشر، ج٢، ص١٧٢-١٧٣.

وكانت وفاته بنفس السنة والشهر : (" وتوفي السلطان في السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح ... ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها "[١].

لقد استطاع صلاح الدين الأيوبي وبجدارة قل نظيرها أقامة دولة قوية ، فتمتع الحجاج وقوافل الحج في عهده باستتباب الأمن وحفظ وتأمين طرق الحج من جميع الأقاليم كمصر والشام والحجاز والعراق واليمن وبلاد إفريقيا والمغرب والأندلس بخطوات أحترازية حفظ من خلالها للإسلام هيبته ،وللحاج كرامته وقيمته الإنسانية من خلال عدله وشجاعته وجليل خدمته للحج ودروب الحجيج فسمي بجدارة"خادم الحرمين الشريفين"[٢].

الخاتمة وأبرز النتائج

١. كان للتمازج الحضاري والفكري فعله المؤثر من خلال حركة التجار المسلمين في عكس صورة مشرفة للدين الإسلامي وتعاملاتهم التجارية والإنسانية وحرصهم على احترام تعاليم الدين الحنيف ، فكانت مدعاة لانتشار الإسلام في القارة الإفريقية عن طريق طرق التجارة من غرب وشمال إفريقيا.
٢. حظيت طرق الحج والحجيج بمكانة سامية وموضع اهتمام الخلفاء والسلاطين وأمرائهم في الدولة العربية الإسلامية ،وكان لصلاح الدين الأيوبي الحظ الأوفر والحظوة الكبرى في هذا الجانب ، أكثر من وساه في الدولة الأيوبية بشكل خاص.
٣. اكتسبت دروب الحج ومواكبه أهمية تاريخية ثرة سجلت من خلالها وصفاً دقيقاً لطرق الحج ومسالكه وأبرز منازلها وما رافقها من أحداث تاريخية وأبعاد حضارية تبلورت في المرافق الخدمية للحجاج وهي تشق طريقها إلى شبه الجزيرة العربية من شرقها وشمالها وجنوبها وصولاً للحرمين الشريفين .

---

(١) ابن شداد، المصدر نفسه، ص٢٢٩.

(٢) ينظر أبن شداد، النوادر السلطانية، ص٨.

٤. اختلاف الروايات التاريخية والجغرافية حول طبيعة طرق الحج سواء العراقي – اليمني – الشامي – والمصري تحديداً من حيث التباين في عرض ذلك الطريق ودروبه وأبرز منازله ، ربما بسبب تعدد طرق الاتصال ما بين مصر والحجاز من جهة ،وبسبب طبيعة الظروف السياسية والاقتصادية وانعكاساتها على دروب الحج المصري والشامي ، منذ منتصف القرن الخامس الهجري من جهة أخرى.

٥. من الجدير بالقول – إن صلاح الدين رغم اهتمامه وشديد عنايته بالحج وتسيير قوافل الحج للمسلمين إلا انه لم يؤد فريضة الحج في حياته رغم رغبته الصادقة في أدائها بسبب طبيعة الظروف السياسية والعسكرية التي شهدتها الدولة العربية الإسلامية آنذاك وفي مقدمتها انشغاله بالجهاد ضد الغزو الصليبي وقلقه من مخاطره على أمن الإسلام والمسلمين عامة.

٦. واجه طريق قوافل الحج والحجيج مشقة وخطورة رافقت الحجاج في رحلتهم لأداء فريضة الحج وطلب العلم في كل درب يسلكونه ومنزل ينزلونه من قلة الماء وطول الطريق وصعوباته ،وما يتخللها من كوارث طبيعية وتأثير الحر وسمومه والبرد شتاءً ،فضلاً عن هجمات الإعراب المتواصلة ، إلى جانب مخاطر الفتن بين القبائل وخطرها المستمر على طول طريق الحج دون مراعاة لحرمة الحج وحجاج بيت الله الحرام.

٧. لعب صلاح الدين الأيوبي دوراً رياديا مهماً في الحد من تلك الاعتداءات وحفظ كرامة الحجاج وعدم السماح بإهانتهم سواء بالبر أو البحر ،وبادر إلى إلغاء ضريبة المكوس التي تفرض على الحاج في ميناء قوص وعيذاب والتعسف المهين في جبايتها.

٨. حرص صلاح الدين على بناء الحصون والقلاع لتأمين الظروف الرئيسية في جزيرة سيناء من جهة وطريق القلاع الصليبية كالكرك والشوبك من جهة أخرى لإضعاف قوة الافرنج ودرء خطرهم في تلك المناطق ، وخطر الإعراب في تلك المناطق الصحراوية ، من خلال رضوخهم للدولة الأيوبية ، والاستفادة من خبرتهم بالصحراء ودروبها ومصادر المياه فيها ، فضلاً عن استخدامهم كعيون ضد الأعداء، وللحفاظ على شطري الدولة الأيوبية ما بين مصر وبلاد الشام كخطوة

عسكرية احترازية وموطئ قدم للجيوش الإسلامية لتحرير بيت المقدس من الغزو الصليبي .

٩. استطاع صلاح الدين الأيوبي وبجدارة قل نظيرها – بناء دولة قوية فتمتع الحجاج وقوافل الحج في عهده باستتباب الأمن وأعاد للإسلام هيبته وتأمين طرق الحج في جميع الأقاليم (مصر، الشام ،والعراق ،واليمن ،وبلاد إفريقيا ، والمغرب والأندلس) بخطوات جريئة واحترازية مما يؤكد شجاعته وجليل عنايته بالحج وطرق الحجيج حتى لقبة بحق بـ (خادم الحرمين الشريفين).

قائمة المصادر الأصيلة والمراجع الحديثة.

القرآن الكريم .

المصادر الأصيلة :-

١. ابن الجوزي : ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت : ٥٩٧هـ) ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، الهند ،مطبعة جيدر آباد ،الدكن ، ١٩٣٩م.

٢. ابن العبري : أبي الفرج غريغوريوس الملطي (ت : ٦٨٥هـ) ، تاريخ مختصر الدول ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٧.

٣. ابن بطوطة : محمد بن عبد الله الطنجي (ت : ٧٧٩هـ) ، رحلة ابن بطوطه ، اعتنى به وراجعه : د. درويش الجويدي ، بيروت ، المطبعة العصرية ، ٢٠٠٨م .

٤. ابن تغري بردي ، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت : ٨٧٤هـ) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،مصر ، وطابع كوستاستوماس وشركاء ، ١٩٦٣.

٥. ابن جبير : ابي الحسن محمد بن أحمد الاندلسي ، (ت : ٦١٤هـ) ، رحلة ابن جبير ، قدم له ووضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٠م

٦. ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت : ٨٠٨هـ) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢ .

٧. ابن خلكان : احمد بن محمد (ت : ٦٨١هـ) ،وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٢ .

٨. ابن سلام : أبي عبيد القاسم (ت : ٢٢٤هـ) ، كتاب الأموال ، شرحه : عبد الأمير علي مهنا ، ط٦ ، بيروت ، دار الحداثة للطباعة ، ١٩٨٨م .

٩. ابن شداد : أبو المحاسن بهاء الدين (ت : ٦٣٢هـ) ، سيرة صلاح الدين الأيوبي المسمى النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ،مصر ،مؤسسة هنداوي.

١٠. أبن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن(ت:٥٧١هـ)، تاريخ دمشق الكبير،تحقيق وتعليق: أبو عبد الله الجنوبي،ط١،بيروت، دار إحياء التراث العربي،٢٠٠١م .

١١. ابن قاضي شهبة : ابو الفضل محمد الأسدي (ت : ٨٧٤هـ) ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق : محمود زايد ، ط١ ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٧١ .

١٢. ابن واصل : جمال الدين بن محمد (ت : ٦٩٧هـ) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين شيال ،مصر ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٧.

١٣. أبو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت : ٧٣٢هـ) ، المختصر في أخبار البشر ، علق عليه ووضع حواشيه : محمود ديوب ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٧.

١٤. أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي (ت : ٦٥٥هـ) ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٢ .

١٥. التجيبي ، القاسم بن يوسف بن محمد (ت : ٧٣٠هـ) ، مستفاد الرحلة والاغتراب ، تحقيق : عبد الحفيظ منصور ، ليبيا ، الدار العربية للكتاب ، بلا .ت .

١٦. الجزيري : عبد القادر بن محمد (ت : ٩٧٧هـ) ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، تحقيق : محمد حسن محمود ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٢ م.

١٧. سبط ابن الجوزي : أبو مظفر يوسف بن قزاوغلي (ت: ٦٥٤هـ) ،مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، الهند، حيدر أباد الدكن ، ١٩٥١ .

١٨. السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن (ت : ٩١١هـ) ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، بيروت ، دار إحياء الكتب العلمية ، ١٩٦٨ .

١٩. ــــــــــــــــــــــــــــــ، تاريخ الخلفاء ، راجعة وعلق عليه : جمال محمود مصطفى ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، ٢٠٠٤ .

٢٠. الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت : ٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٥ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٦.

٢١. الفاسي ، محمد بن أحمد المكي (ت:٨٣٢هـ) ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق : محمد عبد القادر ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨ .

٢٢. الفيروزي آبادي : محمد بن يعقوب (ت : ٨١٧هـ) ، القاموس المحيط بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٩.

٢٣. القزويني : محمد بن محمود (ت : ٦٨٢هـ) ، آثار البلاد وأخبار العباد بيروت، دار صادر ، ١٩٦٠ .

٢٤. القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت : ٨٢١هـ) ، صبح الاعشى في صناعة الإنشاء ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، ط١ ، بيروت، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧ .

٢٥. المقريزي : تقي الدين احمد بن علي (ت : ٨٤٥هـ) ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، القاهرة ، ١٩٥٥.

٢٦. مؤلف مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، تعليق ، سعد زغلول عبد الحميد ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥ م.
٢٧. هاني الاسمر ، طريق صلاح الدين الحربي بسيناء ، مجلة الأهرام ، مصر ، بلا ت.
٢٨. اليافعي ، عبد الله بن أسعد (ت : ٧٦٨هـ) ، مرأة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان،ط٢ ، بيروت ، مؤسسة الاعلمي .
٢٩. اليعقوبي ، أحمد بن واضح (ت : ٢٨٢هـ) ، البلدان ، لندن ، ١٨٩١ .

المراجع الحديثة :

٣٠- سيد عبد المجيد ، الملامح الجغرافية لدروب الحج، ط١،جدة ،مطبعة تهامه للنشر والتوزيع،١٤٠٠هـ.
٣١-شبلي : احمد ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، ط٤ ، القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣.
32-عبد المالك : سامي صالح ، القلاع الأيوبية في سيناء وإستراتيجية الدفاع عن الصحراء (دراسة آثارية معمارية) ، القاهرة ، ٢٠١٢.
٣٤- ــــــــــــــــــ ، حماما قلعتي صلاح الدين الأيوبي صدر وايلة في سيناء ، دراسة آثارية معمارية ، مشكاة المجلة المصرية للآثار الإسلامية ، ع:٣ ، القاهرة ، المجلس الأعلى للآثار ، ٢٠٠٨ م.
٣٥- Blyden : Christianitry , Islam and the Negro Rece , London , 1981.

الاطاريح الجامعية:

٣٦- . الدلالعة : عز الدين ، عجلون في العصر الأيوبي والمملوكي ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، جامعة اليرموك ، ١٩٩٧

الدور العلمي لرحلات طريق الحج الإفريقي

رحلة الشنقيطي للحج نموذجاً

د. محمد خليفة صديق*

مستخلص:

تتميزت رحلات طريق الحج الإفريقي بمميزات عديدة، من أبرزها الدور العلمي لهذه الرحلات، سيما رحلات العلماء وأهل الفقه والمعرفة، ولعل رحلة الشنقيطي التى نحن بصددها في هذه الورقة هي من هذا النوع، وتبدأ الورقة بنبذة عن حياة صاحب الرحلة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، وهو صاحب التفسير المشهور(أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) وكيف طلب العلم؛ مع ذكر بعض مشايخه، وكذلك رحلته إلى الحج وذكر بعض ما لاقى فيها من الصعاب، ومن لقي فيها من الطلبة والعلماء، وبيان لبعض المناقشات والمباحثات في سفره مع بعض العلماء والطلبة أثناء رحلته إلى الحج.

تناولت الورقة مسير رحلة الشنقيطي للحج منذ خروجه من بلاده وحتى وصوله إلى مكة، بالتركيز على وقت وجوده في السودان، حيث دخل السودان من غربه من بلدة أبشي على الحدود السودانية التشادية، مرورا بالجنينة والفاشر وكبكابية والأبيض، ورحلته بالقطار من الأبيض إلى الخرطوم، وتطرقت لبعض المسائل التي سئل عنها الشنقيطي في تلك المناطق لبيان الدور العلمي لتلك الرحلة وأثرها على السودانيين آنذاك.

كما ركزت الورقة على نشاط الشنقيطي في أم درمان وما دار بينه وبين علماء السودان وطلاب العلم في معهد أم درمان العلمي من مسائل في الفقه والمنطق والشعر وغيرها، حيث قال عن المعهد:" وجدناه حافلاً بالعلماء وطلبة العلم الأذكياء،

* أستاذ مساعد– قسم العلوم السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية– جامعة إفريقيا العالمية

تُدرّس فيه فنون كثيرة منها: الأصول والبلاغة والكلام والمنطق وغير ذلك"، كما تتناول الورقة لقاء الشنقيطي ببعض أعيان السودان آنذاك مثل السيد عبد الرحمن المهدي والسيد محمد صالح الشنقيطي.

المبحث الأول: تعريف بصاحب الرحلة محمد الأمين الشنقيطي:

اسمه: محمد الأمين فاسمه مركب: الأمين اسمه ومحمد أضيفت، كما كان العامة يضيفون للبركة، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح، من قبيلة جكن الأبرجد، ويرجع نسبهم إلى حمير.

ولد رحمه الله تعالى سنة ١٣٢٥هـ- ١٩٠٧م، عند ماء يسمى تنبة، من أعمال مديرية كيفا بالجمهورية الإسلامية الموريتانية، ونشأ رحمه الله يتيماً، حفظ القرآن في بيت أخواله، وعمره عشر سنوات، وتعلم رسم المصحف العثماني المصحف الإمام، عن ابن خاله سيدي محمد بن أحمد بن محمد بن المختار، وقرأ عليه التجويد برواية ورش، من طريق أبي يعقوب الأزرق، وقالون؛ من رواية أبي نشيط، وأخذ عنه سنداً بذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم درس على مشايخه النحو، والصرف، والأصول، والبلاغة، وبعضا من التفسير والحديث، وحصّل المنطق وآداب البحث والمناظرة بالمطالعة.

عمل الشنقيطي عمل أمثاله من العلماء من التدريس والفتيا، ولكنه اشتهر بالعمل في القضاء في موريتانيا وبالفراسة فيه، ورغم وجود الحاكم الفرنسي إلا أنّ المواطنين كانوا عظيمي الثقة به فكانوا يأتونه للقضاء بينهم، ويفدون إليه من أماكن بعيدة، أو حيث يكون نازلاً، وكان الحاكم الفرنسي في البلاد يقضي بالقصاص في القتل بعد محاكمة ومرافعة واسعة النطاق، وبعد تمحيص القضية وإنهاء المرافعة وصدور الحكم يُعرض على عالمين جليلين من علماء البلد ليصادقا عليه. ويطلق على العالمين لجنة الدماء، ولاينفذ حكم الإعدام قصاصاً إلا بعد مصادقتهما عليه، وقد كان الشيخ الأمين أحد أعضاء هذه اللجنة، ولم يخرج من بلاده حتى علا قدره، وعظم تقديره، وصار علماً من أعلامها، وموضع ثقة أهلها وحكامها ومحكوميها.

بعد استقراره بالمدينة المنورة عمل مدرساً في المسجد النبوي، وقد فسر القرآن فيه مرتين، ودرّس في مدرسة العلوم الشرعية، ثم انتقل إلى الرياض مدرساً في الكليات

والمعاهد، وأخيراً رجع إلى المدينة، ودرّس في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، حتى توفي وهو مدرس فيها، وكان يُدرّس في الحرم النبوي طيلة فترة وجوده في المدينة، لاسيما في شهر رمضان؛ كما كان أحد أعضاء هيئة كبار العلماء، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.

من أبرز تلاميذه الشيخ عطية محمد سالم والشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الله بن غديان عضو هيئة كبار العلماء، والشيخ عبد العزيز بن صالح آل صالح إمام وخطيب المسجد النبوي، تُوفي ضُحَى يَوْمِ الْخَمِيسِ ١٧ / ١٢ /١٣٩٣هـ، الموافق ١١ مارس ١٩٧٣م، بِمَكَّةَ المكرمة مَرْجِعَهُ من الْحَجِّ ، وَدفن بمقبرة الْمَعْلَاة. (١)

من أبرز مؤلفاته تفسيره ذائع الصيت أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، وهو مدرسة كاملة تتحدث عن نفسها، وهو سبعة أجزاء كبار، وصل فيه – رحمه الله – إلى نهاية قد سمع، وأكمله تلميذه عطية محمد سالم، وهو آخر مؤلفاته، ومنها دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، ومذكرة الأصول على روضة الناظر، وآداب البحث والمناظرة، ورحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ومنهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، وحكمة التشريع، والمثل العليا، والمصالح المرسلة، والإسلام دين كامل وغيرها كثير.

المبحث الثاني: رحلات الحج والدور العلمي:

رحلات العلماء للحج تعتبر من المناسبات العلمية المهمة، حيث يحرص أولئك العلماء الرحالة على الفائدة العلمية لهم، ولمن نزلوا عنده من البلدان التي يمرون عليها في طريقهم للحج، يدونون مشاهداتهم ويسجلون الأحداث التي عرضت لهم، تخليداً لذكراهم وهداية لإخوانهم، وقد يسجل بعضهم المسائل التي سئل عنها في البلاد التي نزل فيها، مع إجابته عن تلك المسائل كما فعل الشنقيطي في رحلته التي نحن بصدد دراسة بعض جوانبها.

---

(١) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٥م)، المجلد التاسع، ص ٤٧٩.

من أبرز رحلات الحج ذات الطابع والأثر العلمي رحلة إبن رشيد السبتي المغربي، وهي تعتبر ثروة علمية رائعة، لما جمعه ابن رشيد في رحلته تلك من الفوائد العلمية في التفسير والحديث والفقه والأصول والتاريخ والتصوف والتراجم والأدب واللغة والنحو والطب وغير ذلك، كما ترجم فيها عن طور من أطوار الحياة الفكرية في العالم العربي والإسلامي في أواخر القرن السابع، فيها فنون وضروب من الفوائد العلمية والتاريخ، وهي ديوان كبير لم يسبق إلى مثله، وجمع فيها من الفوائد الحديثة والأدبية كل عجيبة وغريبة.(١)

ومن تلك الرحلات التي اهتمت بالجانب العلمي، وركزت على المقارنة والتحليل ومذاكرة العلماء؛ رحلة الشيخ محمد السنوسي في رحلته المعروفة بالرحلة الحجازية، حيث اهتم السنوسي في رحلته تلك بالمظاهر العلمية والمعارف المتنوعة وتدوينها، حيث يقول:" وكنت في أثنائه ولوعاً بتقييد ما يعترض من العبر الناشئة عن حسن الأثر" (٢)، كما تناول بعض المسائل الفقهية التي واجهته عند مروره ببعض البلدان، كما تناول مسائل الإجهاض وطعام أهل الكتاب والفرنجة والعملة المستخدمة في بعض البلاد التي مر عليها. (٣) ومن هؤلاء الرحالة الحجاج من يهتم بإلقاء المحاضرات والدروس والدعوة إلى الله ولقاء العلماء ورجال الدين المشهورين، وتناول قضايا العلم الشرعي واللغة والأدب وغيرها، ومدارستها مع العلماء وطلبة العلم وغيرهم.

من الآثار الثقافية والعلمية لرحلات طريق الحج الإفريقي التقاء علماء إفريقيا بأقرانهم، وطلب العلم والاستفادة من علماء البلدان التي يمرون عليها، وتعلم اللغة العربية وانتشارها؛ فقد حرص علماء وطلاب العلم من حجاج إفريقيا على تعلم اللغة العربية عند أداء فريضة الحج ، كما حرص العلماء الرحالة على إتقان العربية وإجادتها، وتدوين الرحلة بها، والإجابة عن الاستفسارات اللغوية، فقد سئل الشنقيطي

---

(١) مُحَمَّد بن عمر بن رشيد الفهري، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: مُحَمَّد الحبيب بن الخوجه، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٤٠٢ – ١٩٨٢م)، ص ٣١- ٣٢

(٢) مُحَمَّد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوخي (تونس، ١٣٩٦، ١٩٧٦م)، الجزء الأول، ص ٤٢

(٣) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤١ .

في رحلة الحج عن أيام العرب وأشعارهم وملحهم وآدابهم ونوادرهم، ولا يخلو حديثه في مثل هذه الموضوعات من عمق في فهم مقاصد الشعراء. (١)

من الخصائص العامة لرحلات الحج خاصة لأهل العلم أنها تبسِط للقارىء أخبار البلاد والقرى والمدن التي يمر بها صاحب الرحلة، وتجعل القارىء للرحلة يحيط علماً بما مضى من أحداث تلك البلاد، مع التعريف بالنابغين من أبنائها سواء أكانوا من العلماء والفقهاء أم الأدباء والقادة... ويقوم بعض هؤلاء الرحالة الحجاج بالدعوة والقاء المحاضرات واللقاء بالعلماء ورجال الدين المشهورين في البلاد، كما يسجلون مناظراتهم مع بعض علماء البلاد، كما فعل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي.(٢)

وصف الشيخ عطية محمد سالم تلميذ الشنقيطي رحلة شيخه بأنها سلسة الأسلوب، عذبة الألفاظ، شيقة الأحداث، جمعت من الحقائق العلمية أدقها، ومن الطُرف أطيبها ... فهي بحق ممتعة لكل قارىء، مهما اختلفت العادات، أو تنوعت الاتجاهات أو تعددت الاختصاصات: من أدب ونحو وفقه وأصول وتفسير وعقائد ومنطق وتاريخ وبيئة وطبيعة... ولم أقف على رحلة بمسائل علمية ومجالس العلماء ومباحث دقيقة وجليلة مثل هذه الرحلة التي ذخرت بمباحث غاية في الدقة وآية في الروعة واشتملت صنوفاً وفنوناً.(٣) ومن عجائب رحلة الشنقيطي جواب الشيخ بنعم؛ لسؤال عن إمكان قيام دولة إسرائيل قبل نشوئها في وقت لاحق، ثم يتحقق جوابه بعد عدة سنوات، ومن أبرز محطات هذه الرحلة إقامة الشيخ في السودان ليالي جرت فيها مساجلات ومباحثات علمية في الفقه والمنطق تخللتها ملحمة أدبية. (٤)

---

(١) أمل بنت صالح الشمراني، الرحلات الإفريقية للحج، مجلة قراءات إفريقية، المنتدى الإسلامي، لندن، العدد ٢٦، إكتوبر- ديسمبر ٢٠١٥م، ص ١٣-١٤.

(٢) عوض عبد الهادي العطا، الرحلة الحجازية وأثرها العلمي في إفريقيا، مجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، العدد ٢٣، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص ١٨٩-١٩٠.

(٣) من مقدمة الشيخ عطية مُحَمَّد سالم لرحلة الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام،(القاهرة: دار ابن تيمية، بدون تاريخ) ، ص ٥- ٦.

(٤) المرجع السابق ، ص ٩.

يرى البعض أن رحلة الشنقيطي هي ذروة الحضور الإفريقي الموريتاني بالحجاز، حيث تنوع نشاط الشنقيطي المعرفي بالحرمين، وشمل التأليف والتدريس والمحاضرة، ولبث هناك سنين يكوّن الرجال ويعلِم الأجيال، ونال بذلك الحظوة والتقدير عند أولي الأمر. وإلى جانب ذلك، كان له دور فاعل في تدعيم الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، إذ شارك في وضع مناهجها وبرامجها، ساعياً في الوقت نفسه في تأسيس رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع آخرين. وقد أثنى عليه العلماء السعوديُّون، فخاطبه الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ قائلاً:" وجزى الله عنا الشيخ محمد الأمين خيراً على بيانه؛ فالجاهل عرف العقيدة، والعالم عرف الطريقة والأسلوب"[١] .

المبحث الثالث: التنوع في كتاب رحلة الحج للشنقيطي:

يقع كتاب الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الموسوم (رحلة الحج إلى بيت الله الحرام) في ٣٣٢ صفحة من القطع الكبير، مستهل بمقدمتين كتبهما تلميذه العلامة عطية محمد سالم، الأولى: عن الرحلة وأهم الموضوعات العلمية التي تم تناولها فيها، والثانية: ترجمة عن حياة الشيخ الجكني، مولداً ونشأة وتحصيلاً ووظائف وتأليفاً ومنهجاً وشخصية وغير ذلك مما له صلة به، وشغلت المقدمتان في بعض الطبعات ٣٨ صفحة من مجموع الكتاب، بجانب صفحة ونصف هي مقدمة المؤلف نفسه، وقد خصصها للحديث عن دوافع حجه، مستشهداً بالآية الكريمة:"ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا"، قائلاً:" إن امتثال هذه الآية هو ما دفعه إلى تجشم هذا السفر المبارك"[٢].

ذكر الشنقيطي دوافع كتابته لنص الرحلة ذاته؛ فقال "وليكن في علم ناظره أنا أردنا تقييد خبر رحلتنا... ليستفاد بما تضمنه من المذاكرة، والأحكام، وأخبار البلاد والرجال، وما تجوّل فيه الأدباء في المجال، والغرض الأكبر من ذلك تقييد ما أجبنا به

---

(١) سيد أحمد بن أحمد سالم، العلاقات الثقافية الموريتانية السعودية، مجلة العرب، العدد ٢٩، يناير ـ فبراير ١٩٩٤، ص ٩٩ –١٠٠.

(2) محمد الأمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام،(مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ)، ص ٦.

عن كل سؤال علمي سئلنا عنه في جميع رحلتنا[١]"، وهو تصريح يعكس سيطرة الهاجس المعرفي والتعليمي على ذهنية المؤلف مما انعكس على بنية النص.[٢] وقد امتازت الرحلة بتعدد الأسئلة العلمية والمناظرات والمساجلات الفكرية، كما امتازت بعمق تفكير الشيخ محمد الأمين الشنقيطي وسعة أفقه وكثرة حفظه، لذلك تناولت الرحلة موضوعات في فنون شتى، سواء في العقيده أو الفقه أو اللغة والحديث والسيرة النبوية والتاريخ والمنطق وغيرها من العلوم. [٣]

بدأ المؤلف سفره في ٧ جمادي الآخر من عام ١٣٦٧هـ، الموافق له ١٦ إبريل ١٩٤٨م، وأنهاه بالحج والزيارة في العشر الأواخر من ذي الحجة من السنة نفسها، أي أنه استغرق حوالي ستة أشهر، سالكاً أحد الطرق التي يسلكها حجاج بلاد إفريقية الغربية للوصول إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وهو من أهم هذه الطرق، وهو طريق الشرق، نحو سودان وادي النيل، ثم يتصل بساحل البحر الأحمر، إلى أن يصل إلى الحجاز.[٤] وأشار الرحالة النمساوي بوركهارت في رحلته لبلاد النوبة أن هناك عدة طرق مهمة للحج من داخل إفريقيا، منها طريق أسيوط أو سنار أو شندي، وتبدأ هذه الطرق من غرب إفريقيا أو وسطها عبر مملكة سنار إلى شندي، ومنهم من يسير من دارفور إلى أسيوط، ومنها إلى جدة بطريق القصير، والذين يسلكون طريق سنار، هم القادمون من كردفان، ولهم طرق ثلاثة: ، أولها: يشق الحبشة ماراً بغندار أو أكسوم إلى مصوع، وثانيها على ضفاف النيل من سنار إلى شندي، وثالثها من سنار إلى التاكا بطريق رأس الفيل، ثم إلى الحلنقة ومنها إلى سواكن.[٥]

---

(١) المرجع السابق، ص ٧.

(٢) محمد ولد عبدي، الرّحلات الحجية الشّنقيطية بنية النص ومنطق القص.. رحلة الجكنّي نموذجًا، بحث قدم في ندوة إرتياد الآفاق بالخرطوم ٢٠٠٥م، موجود على الرابط: http://alrihlah.com/nadawat/research/359 .

(٣) عوض عبد الهادي العطا، الرحلة الحجازية وأثرها العلمي في إفريقيا، مجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، العدد ٢٣، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص ١٩٣.

(٤) أمل بنت صالح الشمراني، الرحلات الإفريقية للحج، مجلة قراءات إفريقية، المنتدى الإسلامي، لندن، العدد ٢٦، إكتوبر– ديسمبر ٢٠١٥م، ص ٩.

(٥) جون بوركهارت، رحلات في بلاد النوبة، ترجمه فؤاد أندراوس، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧م)،

لم تكن رحلة الشنقيطي مجرد رحلة علمية باردة جادة، بل كان فيها من الملح والنوادر والشواهد الشعرية والطرائف؛ فالمباحثات العلمية أحياناً تحتاج إلى شيء من الملح والطرائف والنوادر الشعرية للترويح حتى لا تمل النفس، ومما وقع للشنقيطي في رحلته تلك، سؤال في أثناء المذاكرة عن ثناء أدباء الشعراء على قِصار النساء، كقول الشاعر:

من كان حرباً للنساء ... فإنني سلـم لهنـــه

فإذا عشــرن دعونني ... وإذا عثرت دعوتهّنه

وإذا برزن لمحفـــل ... فقصارهن ملاحهنه

فقال الشيخ مجيباً:" إن القصر الذي يستحسنه الشعراء من النساء ليس القِصَر الذي هو ضد الطول، بل هو القصْر في الخيام؛ فالقصار عندهم هن المقصورات في الخيام، العاملات بقوله تعالي:" وقرّن في بيوتكن" [الأحزاب: ٣٣].

ومن الطُرف التي ذكرها الشيخ، وحدثت له في السودان، قوله: إنه ربما حضر مذاكرتنا بعض العوام الذين لا يفهمون، ومن جهلهم أن واحداً قال لنا بكلامه الدارج ما مضمونه، أنه يغبطنا ويغار منا بسبب أننا نمر بأرض السودان التي فيها موضع شريف، قلنا له: وما ذاك الموضع الشريف؟، قال الخرطوم، قلنا: وأي شرفٍ للخرطوم؟، قال: لأنه مذكور في القرآن العظيم في قوله تعالى:" سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ" [القلم:١٦]، فقلنا له: ذاك خرطوم آخر غير الخرطوم الذي تعني. فضحك من يفهم من الحاضرين. (١)

كما حصلت مناقشة في مجلس من مجالس رحلة الشنقيطي، حيث استدل بعضهم بدليل هو عليه لا له، فقال الأديب العلوي للشيخ: هذا مثل مغنِّي اللصوص، فضحك من له خبرة بقصة مغني اللصوص، وهي قصة مشهورة، ملخصها أن بعض الأمراء أسر لصوصاً كانوا يقطعون الطريق، فقدمهم للقتل واحداً بعد الآخر حتى لم يبقَ منهم إلا واحد، فقال: لا تقتلوني فأنا لست من اللصوص، وإنما كنت مغنياً لهم،

ص ٣٢٣.

(١) محمد الأمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، مرجع سابق، ص ٦٩.

أطربهم بالأناشيد والأغاني، فقالوا له: بم كنت تغني لهم؟ ماذا كنت تغني للصوص؟ فقال: أغنيهم بقول الشاعر:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقـــارن يقتدي

فإن كان ذا شر فجانب بسرعـــة ... وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي

فهذا مغني اللصوص الذي جاء بالأشعار يظنها أنها حجة له، فإذا هي حجة عليه.

المبحث الرابع: الشنقيطي في دارفور والأثر العلمي:

يقول الشنقيطي:" سرنا آخر النهار قاصدين قرية اسمها "الجنينة " في حدود السودان من جهة الغرب فدخلناها في وقت المغرب ونزلنا بمحطة الحكومة. ومن الغد كان مقيلنا عند رجل اسمه علي تني؛ فأحسن إلينا بما يهيأ للضيف من نزل، ورجعنا إلى المحطة التي نزلنا بها آولاً وبتنا بها، ومن الغد اجتمعنا برجل اسمه الحاج مكي، فتلقانا بالبشر والترحيب، وأقمنا عنده أياماً في الإكرام والإحسان جازاه الله خيراً. (١) وفي هذا إشارة لخصلة الكرم المتأصلة في السودانيين؛ فالشيخ بمجرد دخوله أرض السودان من جهة الغرب، وجد كرم الضيافة عند كل من نزل عندهم، بجانب البشر والترحاب المعروف.

ويواصل قائلاً:" ثم بعد ذلك دعانا جماعة من موظفي الحكومة في الجنينة، وطلبوا منا أن نحضر مجتمعًا لهم يقولون له "النادي" يتذاكرون فيه واجتمعوا علينا فيه، وسألونا عن مسائل علمية؛ فأجبناهم ففرحوا بمعارفتنا معهم غاية الفرح، وشكروا لنا كثيراً وأحسنوا إلينا إحسانا زائداً، وجاءتنا من قبلهم هدايا من البعض منهم، وتركنا ضابط البوليس – واسمه محمد عباس فقير– يجمع لنا منهم هدايا إكراماً منهم لنا، وعينوا لنا موعداً بعد صلاة العصر يأتوننا فيه للهدية والوداع، فأعجل عفيف الجبهة السيارات قبل وقت الموعد فذهبنا من غير لقاء ولا وداع لمعالجة السفر قبل وقت الموعد". (٢) وفي هذا أيضاً إشارة لكرم السودانيين، والذى تعدى الكرم اليومي من طعام وشراب، إلى الهدايا بأنواعها المختلفة.

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢)محمد الأمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، مرجع سابق، ص ٨٩.

من الفوائد العلمية التي دونها الشيخ في رحلته تلك داخل السودان، سؤاله في الجنينة جواز صلاة الجمعة في مسجد بناه رجل من أهل البلد في جانب من جوانب البلد، هل يصلى في هذا المسجد ؟، أو يلزمهم أن يصلوا في الجامع الكبير الذي هو مسجد الجمعة العتيق الذي يصليها فيه أهل البلد؟، وكانت الفتوى المطلوبة في خصوص مذهب الإمام مالك رحمة الله ، وقد أجابهم الشيخ أن الصلاة في مذهب مالك في المسجد الجديد لا تجوز إلا في غير الجمعة، والجمعة في الجديد فهي باطلة، وذكر قول خليل في "مختصره":" والجمعة للعتيق وإن تأخر أداء". واحتج مالك لمنع صلاة الجمعة في غير المسجد الأكبر الذي يصلي فيه الإمام؛ بأن النبي صلى الله عليه وعلي آله وسلم والخلفاء الراشدين لم يفعلوا إلا كذلك، وروى ابن المنذر عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول:" لا جمعة إلا في المسجد الأكبر الذي يصلي فيه الإمام". وروى أبو داود في المراسيل عن بكير بن الأشج : " أنه كان بالمدينة تسعة مساجد منها مسجده صلى الله عليه وآله وسلم يسمع أهلها تأذين بلال فيصلون في مساجدهم"، وزاد يحيى بن يحيى في روايته:" ولم يكونوا يصلون الجمعة في شيء من تلك المساجد إلا مسجد النبي صلى الله عليه وسلم" أخرجه البيهقي في المعرفة ويشهد له صلاة أهل العوالي مع النبي صلى الله عليه وسلم الجمعة كما في الصحيح، وصلاة أهل قباء معه، كما رواه ابن ماجة وابن خزيمة، وأخرج الترمزي من طريق رجل من أهل قباء عن أبيه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشهد الجمعة من قباء، وروى البيهقي أن أهل ذي الحُليفة كانوا يجتمعون بالمدينة قال:" ولم ينقل أنه أذن لأحد في إقامة الجمعة في شيء من مساجد المدينة ولا في القرى التي قربها "، وقال ابن المنذر:" لم يختلف الناس أن الجمعة لم تكن تصلي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وفي عهد الخلفاء الراشدين، إلا في مسجد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وفي تعطيل الناس مساجدهم يوم الجمعة واجتماعهم في مسجد واحد ابين البيان أن الجمعة خلاف سائر الصلوات وأنها لا تصلى إلا في مكان واحد.[1]

(١) محمد الأمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، مرجع سابق، ص ١٠١ -١٠٣.

وذكر الشنقيطي قول ابن عساكر في مقدمة تاريخ دمشق أن عمر كتب إلى أبي موسى وإلى عمرو بن العاص وإلى سعد بن أبي وقاص: أن يتخذ مسجداً جامعاً، ومسجداً للقبائل، وإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى المسجد الجامع فشهدوا الجمعة، وقال ابن المنذر:"لا علم أحداً قال بتعداد المسجد غير عطاء. وما قاله بعض الشافعية من أن الإمام الشافعي رحمه الله دخل بغداد وهي تقام فيها جمعتان رده بعض محققي الشافعية بأن الجامع الآخر لم يكن حينئذ داخل سورها؛ فقد قال الأثرم لأحمد جمع جمعتين في مصر واحد؟ قال : لا علم أحداً فعله . وختم الشيخ الرد على السؤال بقوله:" ربما جاز تعدد الجمعة لضرورة، كأن يقع بين أهل البلد شر يخاف الضر فيه من الاجتماع في محل واحد، وكأن يحول بين طرفي القرية نهر تعظم المشقة في عبوره، وكأن يعظم البلد جداً بحيث تعظم المشقة على من في أطرافه لبعد المسافة، وروي عن أبي حنيفة رحمه الله جوار التعدد مطلقاً".(١)

ومما سأل عنه موظفو الحكومة في الجنينة حكم الزواج بنية الطلاق؛ كالغريب في بلد يريد التزوج فيه، ونيته أنه إن أراد العود لوطنه ترك الزوجة طالقاً في محلها، وهل تزوجه مع نية الفراق بعد مدة يجعل نكاحه نكاح متعة فيكون باطلاً، أم لا ؟ ، فكان جواب الشنقيطي أنه نكاح صحيح ولا يكون متعة إلا بالتصريح بشرط الأجل عند عامة العلماء، إلا الأوزاعي فأبطله، وعن مالك رحمه الله أنه قال : ليس هذا من الجميل ولا من أخلاق الناس.

ويلاحظ أن الأسئلة التي وجهت للشنقيطي في نادي الجنينة كان أكثرها في الشعر والشعراء، وقد أجاب رحمه الله عنها جميعاً، مما أسعدهم وازداد فرحهم وسرورهم بمعرفتهم للشيخ الشنقيطي، وهو ما يشير إلى إزدهار الأدب والشعر في الجنينة في تلك المرحلة من تاريخها. ومما سئل عنه في باب الشعر أيضا سؤال عن معنى قول عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي: رأت رجلاً أيما إذا الشمس عارضت فيضحى وأيما بالعشي فيحضر، كما طلبوا من الشيخ أن يملي عليهم القصيدة التي منها البيت، فأملاها عليهم، وبين لهم معنى البيت، بقوله :" "أيما": لغة

(١) المرجع السابق، ص ١٠٣.

في أما، وهي الرواية في بعض نسخه، ومعنى قوله : "يضحى" يكون بارزاً للشمس من غير كن يحجبها عنه، ومنه قوله تعالى:[وانك لا تظمؤا فيها ولا تضحى] (طه / ١١٩) ، وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما على معنى الآية بالبيت المذكور ، وقوله : "يخصر" مضارع خصر بالكسر يخصر بالفتح خصراً بفتحتين على القياس ، إذا أصابه البرد ، ومنه قول الشاعر:

إذا ما رأوا ناراً يقولون ليتها وقد خصر أيديهم نار غالب

فقوله : "وقد خصرت أيديهم" أى أصابهم البرد، لأن اليد تتأثر من شدة البرد كثيراً .

ثم خرج الشنقيطي من الجنينة في شوال ١٣٦٧هـ، أغسطس ١٩٤٨م، متوجهاً إلى الفاشر، وكان موسم الأمطار في عنفوانه، وكانت الأمطار متراكمة، فحبسهم الوحل ليلتين في أرض خلاء، ثم وصلوا قرب الظهيرة إلى كبكابية، فوجدوا فيها السمن كثيراً جداً، ويباع رخيصاً جداً؛ فمكثوا فيها قدر ساعة تقريباً، وخرجوا منها، وحبسهم الوحل أيضا ليلتين أخريين، ثم وصلوا بعد الظهر بعد تعب كثير إلى الفاشر، ونزلوا عند رجل اسمه الحاج أبو سفيطة، ثم اجتمع بهم قرب المغرب ضابط البوليس محمد عباس بخيت فآواهم وأكرمهم، ومن الغد كان مقيلهم عند رجل من الشناقيط يقطن بمدينة "الفاشر" اسمه سيدي محمد بن أحمد سيدي، أكرمهم وفرح بهم ، ثم سافروا آخر ذلك اليوم متوجهين إلى الأُبيض، فمكثوا دونها ليلتين، ومرروا بمحطات عديدة لم ينزلوا في شيء منها، منها محطة صغيرة اسمها "أم كداده"، وقرية اسمها "النهود" وغيرها لم يعرف الشنقيطي اسمه ، ثم قال:" نزلنا "الأبيض" أول النهار فنزلنا عند رجل اسمه محمد خير، ومكثنا في قرية الأبيض ليلتين، وصاحبنا الذي نحن في ضيافته يرسل لنا في يومينا قرب الغروب قطعة من عصيدة الدخن عليها بعض إدام، فمرة تركنا وأكلنا من زادنا، ومرة تناولنا منها . فتذكرت قول الشاعر :

الجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلام تكثر حسرتي ووساوسي
والموت سوى حين عدل قسمه بين الخليفة والفقير البائس

المبحث الخامس: الشنقيطي في الخرطوم وأم درمان.. درة رحلته العلمية:

يقول الشنقيطي:" ثم ركبنا في قطار الحديد من "الأبيض" متوجهين إلي "الخرطوم" ، فمكثنا دونه ليلتين، ومررنا بقرى كثيرة ما نزلنا في شيء منها ، ولا عرفنا فيها شيئاً إلا قرية يقال لها: "وادي مدني" سماها لنا واحد من الراكبين معنا، وقف بنا القطار فيها قليلاً ثم سار، ثم قدمنا إلى بلد "الخرطوم" أول النهار، فنزلنا عند رجل اسمه عبد الباقي عبد الباقي، فأظهر لنا البشاشة، فبعد نزولنا بقليل جاءنا أخونا الفقيه الأديب الشيخ محمد محمود بن الشيخ عثمان المعروف بابن عميرة الجكني، فأنسنا بقدومه، وفي ليلتنا الأولى اجتمع بنا رجل من العلماء المدرسين في المعهد الديني في "أم درمان" اسمه الشيخ إبراهيم يعقوب؛ فسألني سؤالاً منطقياً عن القضايا الموجهة وعن بسائطها ومركباتها؛ فأجبته بإيضاح ما سأل عنه وأخبرته بأن الجهة في اصطلاح أهل المنطق هي: اللفظ الدال على المادة، والمادة عندهم كيفية نسبة المحمول إلى الموضوع في نفس الأمر؛ لأن المحمول صفة ، والموضوع موصوف وثبوت العقل نفيه بحال، كثبوت العلم والقدرة لله تعالى، وكون الكل أكبر من الجزء، والواحد نصف الاثنين، وتارة يكون جائزاً يقبل العقل نفيه، كثبوت الشجاعة والكرم لزيد مثلاً . ثم إن المحمول يكون تارةً دائماً للموضوع لا يفارقه بحال، كما في قولك : "الإنسان حيوان" لدوام اتصاف الإنسان بالحيوانية وتارة يكون غير دائم له، كقولك : "الكاتب متحرك الأصابع" ؛ لأن حركة الأصابع ليست دائمة بل وقت الكتابة فقط ."[1]

ثم تمت دعوة الشنقيطي لزيارة معهد أم درمان العلمي غداة وصوله للخرطوم، ويصف الشنقيطي المعهد بقوله:" من الغد دعانا علماء المعهد الديني في "أم درمان" فوجدناه حافلاً بالعلماء والطلبة الأذكياء تدرس فيه فنون كثيرة، منها: الأصول، والبلاغة ، والكلام ، والمنطق، وغير ذلك، وحضرنا في ذلك المعهد الديني أياماً، وأكثر الطلبة وبعض العلماء سألونا عن مسائل من فنون شتى"[2] ، وهذا يؤكد أن معهد أم درمان العلمي في تلك الفترة كان في أوج عظمته العلمية، مما يجعله لا يقل

(١) محمد الأمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٤.

عن الأزهر الشريف أو جامعة الزيتونة، وكانت فترة بقاء الشنقيطي في أم درمان والخرطوم في رحلة الحج من أخصب ما أنتجته هذه الرحلة من موضوعات علمية، وقد أثرت المناظرات العلمية التي أدارها الشيخ بموضوعية أثراً كبيراً في أسلوب البحث العلمي والمناظرة والمراجعة، وكانت أيامه فيها ممتلئة بكثير من النشاط العلمي الزاخر. (١)

من أهم الملاحظات التي تؤكد الثراء العلمي لنشاط الشنقيطي وحركته في أم درمان والخرطوم أنها استغرقت من صفحة ١٠٦ إلى صفحة ٢٨٧ من كتاب الرحلة، وكل الأسئلة تنم عن علم ومعرفة وتبحر خاصة في العلوم الصعبة مثل المنطق والقياس والمصالح المرسلة، كما كانت هناك أسئلة ذات طابع سياسي استشرافي مثل السؤال عن إمكانية قيام دولة لليهود في مستقبل الأيام، وكان هذا قبل قيام إسرائيل بسنوات طويلة.

من أوائل ما سئل الشنقيطي يوم قدومه لمعهد أم درمان العلمي أول مرة أن قال له بعض الأساتذة المدرسين أن يتكلم لهم عن قوله جل وعلا : (ولو أن قرءانا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً) (الرعد /٣١)، فكان جوابه أن هذه الآية الكريمة نزلت في نفر من مشركي مكة منهم عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي رضي الله عنه أخو أم سلمة رضي الله عنها؛ لأنه كان قبل إسلامه من أشد المشركين عناداً وكفراً وهو القائل قبل إسلامه:(وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ) (الإسراء / ٩٣) قال هو وابن عمه أبو جهل بن هشام في نفر من المشركين للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (إن سرك أن نتبعك فسيّر عنا جبال مكة بالقرآن وأذهبها؛ لتتسع أرض مكة لمزراعنا، فإنها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً؛ لنغرس فيها الأشجار نزرع ونتخذ البساتين، فلست في زعمك بأهون على الله تعالى من داود عليه السلام حيث سخر الله له الجبال تسبح معه، وسخِّر لنا الريح لنركبها إلى الشام لحوائجنا وميرتنا ونرجع في يومنا، فلست أهون على ربك من سليمان، أو أحيّ لنا جدنا قصياً أو من شئت من آبائنا وموتانا

(١) عوض عبد الهادي العطا، الرحلة الحجازية وأثرها العلمي في إفريقيا، مرجع سابق، ص ٢٠١.

لنسأله عن أمرك، فإن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى ولست بأهون على الله منه) [١]

ويقول الشنقيطي:" في معنى هذه الآية وجهان لعلماء التفسير: فمعناها عند قتادة : لو أن تسيير الجبال عن أماكنها وإذهابها وتقطيع الأرض – أي شقها – أنهاراً وعيوناً، وإحياء الموتى وتكليمهم، فعل بقرآن أنزل على نبي قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم، لأنه أفضل كتاب أنزله الله، ونظير هذا المعنى في كلام العرب قول ابن أبي سلمى الضبي يصف فرساً : فلو طار ذو حافر قبلها لطارت ولكنه لم يطر . وعلى هذا التفسير فجواب "لو"محذوف، وتقديره : لو أن قرآنا سيرت به الجبال لكان هذا القرآن العظيم، وحذف جواب "لو" إذا دل المقام عليه جائزا اكتفاء بمعرفة السامعين ، كقول الشاعر :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً

والتقدير: لو شيء أتانا سوى رسولك لرددناه .

والوجه الثاني: أن معنى الآية: لو أجبناكم فيما اقترحتم فسيرنا عنكم جبال مكة بهذا القرآن، وشققنا لكم به الأرض أنهاراً وعيوناً وأحيينا لكم بها الموتى حتى كلموكم، لتماديتم على كفركم بالرحمن، ويدل لهذا التفسير الأخير أمور: أحدها: أن جواب "لو" المحذوف تقدم ما يدل عليه في هذا التفسير، وهو قوله تعالي: (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) (الرعد /٣٠) وقد قال بعده: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) فيكون المعنى: ولو أن قرأنا سيرت به الجبال لكفروا بالرحمن أى: لو فعلنا لهم ما طلبوا لما آمنوا. بل قيل : إن (وهم يكفرون) جواب "لو" مقدم عليها بناء على القول بجواز ذلك . والأمر الثاني : إتيانه تعالى بعده بقوله: (أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً)، ومعنى قوله: (أَفَلَمْ يَيْأَسِ) أفلم يعلم الذين آمنوا أن الله لو شاء هدايتهم لهداهم وحيث لم يشأ هداهم فلا ينفع فيهم تييسر الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى. [٢]

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، مرجع سابق، ص ١١٤-١١٥ .

(٢) محمد الأمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، مرجع سابق، ص ١١٦ .

وكانت هناك أسئلة لغوية من طلاب معهد أم درمان العلمي على جانب كبير من العمق، مما يشير للمستوى العلمي المتقدم لطلاب المعهد، الذى صار فيما بعد جامعة أم درمان الإسلامية، ومن تلك الأسئلة اللغوية يقول الشنقيطي:" ثم سألنا بعض أذكياء الطلبة من أهل " أم درمان" عن المثنى من أسماء الإشارة والأسماء الموصولة نحو ذين وتين واللذين واللتين هل هي معربة، أم لا؟ وإن كانت معربة فكيف يسوغ ذلك مع ما تقرر عندهم من أن الأسماء الموصولة مبنية للشبه الافتقاري، وأسماء الإشارة مبنية للشبه المعنوي. وكانت إجابة الشيخ: أن بعض النحويين يقول: ذان واللذان مثلاً غير مثنيين حقيقة، إذ لا يثنى المبني، وصيغتهما صيغة مستقلة، وإنما تغير بالعوامل نظراً لصورة التثنية، فبُنيا على ما يشاكل إعرابهما. والذي يظهر لمقيد هذه الرحلة عفا الله عنه أن هذا القول غير سديد، إذ قولهم في الواحد المشار إليه: " ذا "، وفي الاثنين المشار إليهما:" ذان " ، وقولهم "الذي" في الواحد، و"اللذان" في الاثنين = تثنيةٌ مشاهدةٌ محسوسة، وادعاء أنها صورة خالية من الحقيقة يحتاج إلى دليل، ولا دليل عليه، والذي يقبله الذهن السليم أن المثنى من أسماء الإشارة والموصولات معربٌ ومثنى حقيقةً لا صورةً، كما عليه ابن مالك في ألفيته حيث قال في كونه مثنى في الإشارة:

وذان تان للمثنى المرتفع وفي سواه ذين تين اذكر تطع

كما أجاب الشنقيطي من وصفهم بـ" بعض أذكياء الطلبة في معهد أم درمان العلمي عن قوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ } [الحج:٥٢] وتفسيرها، وعن قصة الغرانيق، فأجابهم في تسع صفحات، وأجاب عن سؤال للقاضي الشرعي في أم درمان الشيخ يوسف إبراهيم النور رحمه الله عن تحقيق القول بالموجب، لأن الشيخ يوسف كان حينها ينظر في كتاب؛ فوجد فيه ذكر القول بالموجب، فطلب من الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الحديث عن ذلك بايضاح وبيان؛ فأجاب الشيخ جواباً شافياً مستفيضاً، كما سأله بعض حذاق الطلبة – هكذا وصفهم الشنقيطي في رحلته– أن يتكلم لهم عن القادح المسمى" فساد الوضع" والقادح المسمى " فساد الاعتبار" وتحقيق النسبة بينهما؛ فأجاب كذلك وأجاد تفصيلاً ودار في تلك المذاكرة حديث عن تنقيح المناط؛ فبيّن لهم الشيخ تنقيح المناط

وتخريج المناط وتحقيق المناط، كذلك فصّل لهم في السبر والتقسيم الذى هو حصر المجتهد الأوصاف الموجودة في الأصل المقيس عليه، ثم يبطل ما لا يصلح للعلة من تلك الأوصاف، ويعين للتعليل الوصف الصالح له. (١)

وكان لمباحث أصول الفقه وجوداً مقدراً في المباحث العلمية لرحلة الشنقيطي أثناء وجوده مع علماء معهد أم درمان العلمي، حيث طلبه بعض علماء المعهد أن يتكلم لهم على المصالح المرسلة، وعلى دليل المالكية على الاستدلال بها؛ فكان جوابه: أن المصالح المرسلة التي تسمى عند الأصوليين بهذا الاسم وبالاستصلاح، وبالمرسل، هي: الوصف المناسب الذي يتضمن ترتب الحكم عليه مصلحة، والحال أنه لم يرد نص من الشارع على اعتبار نفس ذلك الوصف في نفس ذلك الحكم، ولا على اعتباره فيه، ووصفت بأنها مصلحة واستصلاح لما فيها من مطلق المصلحة للناس، ووصفت بالإرسال لإرسالها أي إهمالها عما يدل على اعتبارها أو عدم اعتبارها؛ فمالك رحمه الله لا يهمل تلك المصلحة المترتبة على ذلك الوصف من ترتيب الحكم عليه؛ لأن الشارع عهد منه عدم إلغاء المصالح، ودليل المالكية على العمل بالمصالح المرسلة إجماع الصحابة الإجماع السكوتي على العمل بها في وقائع كثيرة ، بانضمام بعضها إلى بعض يحصل القطع، و لابد أن نذكر منها ما فيه كفاية. (٢)

فمن أمثلة المصلحة : تولية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما؛ لكونه أحق بالخلافة ممن سواه، فتوليته له هو الحكم، وكونه أحق هو الوصف المناسب للحكم، وقد اكتفى به أبو بكر – رضي الله عنه – عند وفاته في حكم يتعلق به حقوق جميع المسلمينووافقه جميع أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولم ينكر عليه أحدٌ منهم، مع أن توليته لعمر لم يرد في خصوصها نص من كتاب الله ولا من سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وإنما فعلها أبو بكر رضي الله عنه للمصلحة المرسلة، ومنها : ترك عمر رضي الله عنه الخلافة شورى بين ستة من

(١) محمد الأمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، مرجع سابق، ص ١٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٢.

أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم توفي وهو عنهم راضٍ، ومنها : اتخاذه رضي الله عنه سكة يتعامل بها المسلمون لتسهل على الناس المعاملة، ومنها : اتخاذه رضي الله عنه داراً بمكة للسجن لما انتشرت الرعية في زمنه، ومنها : كتبه رضي الله عنه أسماء الجند في ديوانه، إذ هو أول من دوّن الدواوين في الإسلام. فهذه المسائل التي ذكرناها عن عمر رضي الله لم يرد في واحدة منها نصٌ خاصٌ من كتاب أو سنة، وقد فعلها عمر للمصلحة المرسلة، ولم ينكر عليه أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومنها أيضا: إجماعهم على كتابة المصحف العثماني لأجل حفظه من الذهاب فترتب ذلك الحكم على ذلك الوصف فيه مصلحة هي حفظ القرآن الذي به حفظ الدين، والشارع لم يأمر بذلك ولم ينه عنه، وقد فعله الصحابة رضي الله عنهم للمصلحة المرسلة، ومنها : نَقْطُ المصحف وشَكْلُه لأجل حفظه من التصحيف، ومنها: تجديد عثمان رضي الله عنه للمصاحف وجمع الناس على مصحف واحد خوف الاختلاف، ومنها: هدم الدور المجاورة للمسجد عند ضيقه لأجل توسعته. وأمثال هذا من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيرٌ جداً من غير نكير ولا معارض، وهذا يدل دلالة واضحة على العمل بالمصالح المرسلة، لكن يجب في هذه المسألة كما حققه غير واحد من المحققين أن ينتبه للنظر في مآلات الأمور وعواقبها فلا يحكم المجتهد على فعل من أفعال المكلفين بالإقدام عليه أو الإحجام عنه إلا بعد نظره فيما يؤول إليه، فربما يظهر في فعل أنه مشروع لمصلحة تستجلب، أو منهي عنه لمفسدة تنشأ عنه، لكن مآله على خلاف ذلك. [1]

ويوضح الشنقيطي بعض ضوابط المصلحة المرسلة فيقول:" اعلم أن التحقيق أن المصلحة المذكورة تنخرم باستلزامها مفسدة راجحة عليها، أو مساوية لها؛ فمثال المفسدة الراجحة ما لو أراد المسلمون فداء أسارى منهم بايدي العدو، وامتنع العدو عن قبول غير السلاح، وكان ذلك السلاح تقوى به شوكة الكفار على المسلمين قوة تستلزم قتلهم أكثر من الأسارى المذكورين؛ ففداء الأسارى المذكورين من أيدي الكفار مصلحة

(١) محمد الأمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، مرجع سابق، ص ١٨٤.

تستدعي ترتب الحكم عليها، ولو كان الفداء بالسلاح وقوتهم بذلك السلاح على المسلمين حتى يقدروا على قتل أكثر من الأسارى مفسدة استلزمتها هذه المصلحة وهي أعظم منها، فتتخرم المناسبة بسبب تلك المفسدة الراجحة، ومثال المفسدة المساوية للمصلحة: قوة الكفار بالسلاح المذكور في الفداء قوة يقدرون بها على قتل قدر الأسارى من المسلمين؛ فإنقاذ أسارى المسلمين من الكفار مصلحة تستدعي الحكم ولو بالسلاح ، وقوة الكفار بالسلاح حتى يقدروا على قتل الأسارى مفسدة استلزمتها المصلحة المذكورة وهي مساوية لها، لأن المستنقذ بالسلاح يموت قدره به، فتتخرم المناسبة بهذه المفسدة المساوية. (١)

من الأسئلة ذات الطابع السياسي الاستشرافي التي سئلت للشيخ الشنقيطي في معهد أم درمان العلمي سؤال عن إمكانية قيام دولة لليهود في مستقبل الأيام، وكان هذا قبل قيام إسرائيل بسنوات طويلة، مما يؤكد نجابة طلاب المعهد وتفتحهم السياسي، حيث يقول الشيخ:" ثم سألنا بعض الطلبة: هل عثرنا على نص من كتاب أو سنة يُفهم منه وجود دولة لليهود في آخر الزمن؟ فأجاب رحمه الله ما ملخصه: إن ذلك قد جاء بالإشارة أن بعض النصوص فيها إشارة إلى هذا، وهو قوله صلى الله عليه وسلم:

(تقاتلون اليهود) وأن المقاتلة على وزن مفاعلة، والمفاعلة لا بد أن تكون بين طرفين، هم طرف وأنتم طرف، وإذا كان هذا معنى ذلك أنه لا بد أن يكون هناك جيشان، وإذا كان هناك جيش فلا بد أن يكون هناك اجتماع ونظام وأمير لكل من الطرفين؛ ففي هذا إشارة إلى أنه يكون لليهود دولة وقوة حتى يقاتلوا.

ختم الشنقيطي وجوده في أم درمان بلقاء مواطنه السيد محمد صالح الشنقيطي أول رئيس جمعية تشريعية في السودان (١٩٤٨ –١٩٥٣)، وسماه الشيخ محمد الأمين في رحلته (رئيس اللجنة في السودان)، وقال عنه:" فأحسن إلينا وأكرمنا غاية الإكرام"، كما جمع الشنقيطي بين الشيخ محمد الأمين والسيد عبد الرحمن المهدي، يقول الشيخ محمد الأمين عن لقائه بالسيد عبد الرحمن:" فعزيناه في ولد ولده كان متوفى عند ملاقاتنا،

(١) المرجع السابق، ص ١٨٥.

ففرح بلقائنا وأظهر لنا البشر والإكرام، وأهدى لنا هدية سنية". وقد قام السيد محمد صالح الشنقيطي بتشييع الشيخ محمد الأمين بسيارته الخاصة، وأخذ للشيخ ولجميع من معه تذاكر السفر في القطار إلى سواكن على حسابه.

خاتمة:

هدفت هذه الورقة لتناول الأثر العلمي لرحلات طريق الحج الأفريقي من خلال تناول رحلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي للحج، بالتركيز على وقت وجوده في السودان لأنها كانت الفترة الأغنى والأخصب علمياً؛ لما فيها من أسئلة عميقة ومناظرات لطيفة وفكاهة وشعر وأدب ولغة ومنطق، وكانت حافلة بالمسائل العلمية ومجالس العلماء والطلاب ومباحث دقيقة وجليلة .

تتبعت الورقة دخول الشنقيطي للسودان من غربه من بلدة أبشي على الحدود السودانية التشادية، مروراً بالجنينة والفاشر وكبكابية والأبيض، ورحلته بالقطار من الأبيض إلى الخرطوم، وتطرقت لبعض المسائل التى سئل عنها الشنقيطي في تلك المناطق لبيان الدور العلمي لتلك الرحلة وأثرها على السودانيين آنذاك.

كما ركزت الورقة على نشاط الشنقيطي في الخرطوم وأم درمان وما دار بينه وبين علماء السودان وطلاب العلم في معهد أم درمان العلمي، الذى وصفه الشنقيطي بأنه كان حافلاً بالعلماء وطلبة العلم الأذكياء، تُدرّس فيه فنون كثيرة منها: الأصول والبلاغة والكلام والمنطق وغير ذلك"، كما تناولت الورقة لقاء الشنقيطي ببعض أعيان السودان آنذاك مثل السيد عبد الرحمن المهدي والسيد محمد صالح الشنقيطي.

خلصت الورقة للدور العلمي الكبير لرحلات طريق الحج الإفريقي في إثراء الجانب العلمي للعلماء والطلاب على حدٍ سواء في البلاد التي ينزل فيها صاحب الرحلة، وكانت رحلة الشنقيطي من أبرز تلك الرحلات لما حوته من مباحث علمية فريدة وردت في ثنايا الورقة، كما خلصت الورقة لدور رحلة الشنقيطي وشبيهاتها في تعميق الوعي السياسي الاستشرافي لطلاب العلم الشرعي سيما في المعاهد ذات المستوى العالي مثل معهد أم درمان العلمي.

خلصت الورقة كذلك إلى أن معهد أم درمان العلمي في فترة حضور الشنقيطي في رحلة الحج كان في أوج عظمته العلمية، مما يجعله لا يقل عن الأزهر الشريف أو

جامعة الزيتونة، وكانت فترة بقاء الشنقيطي في أم درمان والخرطوم في رحلة الحج من أخصب ما أنتجته هذه الرحلة من موضوعات علمية.

المراجع:

١- أمل بنت صالح الشمراني، الرحلات الإفريقية للحج، مجلة قراءات إفريقية، المنتدى الإسلامي، لندن، العدد ٢٦، إكتوبر – ديسمبر ٢٠١٥م.

٢- جون بوركهارت، رحلات في بلاد النوبة، ترجمه فؤاد أندراوس، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧م).

٣- سيد أحمد بن أحمد سالم، العلاقات الثقافية الموريتانية السعودية، مجلة العرب، العدد ٢٩، يناير . فبراير ١٩٩٤.

٤- عوض عبد الهادي العطا، الرحلة الحجازية وأثرها العلمي في إفريقيا، مجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، العدد ٢٣، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

٥- محمد الأمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام،(مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ).

٦- محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٥م).
٧- محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوخي (تونس، ١٣٩٦، ١٩٧٦م).
٨- محمد بن عمر بن رشيد الفهري، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوج، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٤٠٢ – ١٩٨٢م).
٩- محمد ولد عبدي، الرّحلات الحجية الشّنقيطية بنية النص ومنطق القص.. رحلة الجكنّي نموذجًا، بحث قدم في ندوة إرتياد الآفاق بالخرطوم ٢٠٠٥م، موجود على الرابط : http://alrihlah.com/nadawat/research/359 .

أثر السكك الحديدية على رحلات الحج بين مصر وبلاد الحجاز ١٨٦١ – ١٩٢٠م

د/ الشيماء محمد بدوي*

نالت رحلات الحج اهتمامًا كبيرًا من الحكومة المصرية على مر العصور نظرًا لقدسيتها من الناحية الدينية، حيث كان خروج المحمل بكسوة الكعبة الشريفة من أهم الاحتفالات المصرية الدينية.

أولًا: إنشاء السكك الحديدية واستخدامها في رحلات الحج.

سلكت رحلات الحج طرقًا محددة تسير فيها قوافل الحجيج من مصر إلى بلاد الحجاز(١)، وقد تأثرت هذه الطرق– بشكل كبير– بإنشاء خطوط السكك الحديدية المصرية والحجازية.

وقد أنشئت خطوط السكك الحديدية بالأراضي المصرية منذ عام ١٨٥٤م، حيث بدأت بخط السكة الحديد الإسكندرية– القاهرة، ثم القاهرة– السويس، ثم امتدت إلى الجنوب وصولًا إلى الأراضي السودانية (٢)، كما امتدت خطوط السكك الحديدية إلى الموانيء المصرية البحرية وهي الإسكندرية ودمياط ورشيد والبرلس على ساحل البحر المتوسط، والتي ربطتها بمنطقة الدلتا والقاهرة، وذات الطريق اتصل بصعيد مصر والسويس(٣).

وكان لامتداد خط السكة الحديد إلى السويس في ديسمبر من عام ١٨٥٨م أن اتُّخذ قرار بتحول موكب الحج للمرور عن طريق السويس في العام التالي، ولكن كانت البداية الفعلية لمرور موكب الحج عن طريق السويس باستخدام السكك الحديدية

* مدرس التاريخ الحديث والمعاصر– كلية الآداب– جامعة كفر الشيخ

في عام ١٨٦١م، حيث مثل هذا التاريخ أول رحلة حج استخدمت السكك الحديدية من القاهرة إلى السويس(٤).

ومنذ ذلك التاريخ أصبح الطريق الرئيسي والرسمي لنقل الحجاج من مصر إلى بلاد الحجاز باستخدام السكك الحديدية المصرية حتى السويس، ومنها إلى بلاد الحجاز من خلال السفن البحرية (٥).

وتتولى نظارة الداخلية الإعلان عن مواعيد خروج المحمل الشريف لمن يرغب في السفر معه، مع توضيح أهم المميزات التي كان يحصل عليها المسافرون برفقة المحمل الشريف، ونشر ذلك في الوقائع المصرية، ففي عام ١٩٠٧م نشرت وزارة الداخلية معلنة عن قرب سفر المحمل ومميزاته كما جاء بالإعلان" .... كل من يريد مرافقة المحمل في السفر يكون تحت رعاية أمير الحج والحرس العسكري، ويتكفل أطباء المحمل وصيادلته بمعالجتهم بدون تأخير..." كما جاء أيضًا ".... وعلى العموم فإنهم يسافرون في طريق أفضل من الطريق المعتاد من كل وجه خصوصًا من حيث قصر المسافة، وقلة المشقة، وتوفر أسباب الراحة والأمان"(٦).

وهنا قصدت وزارة الداخلية أنه باستخدام السكك الحديدية لنقل الحجاج اختُصر الكثير من الوقت والجهد، بالإضافة إلى باقي المميزات التي كان يحصل عليها الحجاج برفقة المحمل الشريف.

وكان مجلس النظار هو المسؤول عن تحديد محطة السكة الحديد التي ينطلق منها قطار الحجيج متوجهًا إلى السويس، وتحديد الموعد أيضًا(٧)، وفي بعض الأحيان كان يتدخل أمير الحج في تحديد موعد السفر، ولابد من موافقة وزارة الداخلية عليه، ثم يعلن هذا الميعاد بالجريدة الرسمية، وفي المديريات حتى يتسنى للحجاج التجمع في المحطة والوقت المحددين(٨).

وقد حُددت محطة العباسية بالقاهرة كنقطة للتجمع والانطلاق لقطار الحجيج لكل الراغبين في السفر إلى بلاد الحجاز، وخُصصت بالقطار عربات للصرة وللأثاث وللأمتعة الخاصة بالحجاج، وأخرى للحيوانات المرافقة لهم، وبعد وصولهم إلى السويس يتم نقلهم إلى أحد مينائي جدة أو ينبع، ومنهما إلى الأماكن المقدسة(٩).

وكان لاستخدام السكك الحديدية المصرية في نقل الحجاج أهميته في اختصار الكثير من الوقت والجهد، وتحقيق الأمان للحجاج من غارات البدو عليهم، وسرقتهم[١٠]، ومن ثم بدأت الدعوة إلى إنشاء خط السكة الحديد ببلاد الحجاز، وربطها ببلاد الشام لتسهيل الأمر ذاته على حجاج العالم الإسلامي، وأعلن السلطان عبد الحميد الثاني ذلك في عام ١٩٠٠م، وبالرغم من تعدد الآراء في الهدف الأساسي من إنشاء هذا الخط الحديدي[١١]، إلا أن رحلات الحج- في النهاية- استفادت منه كثيرًا في الذهاب والإياب.

وقد تطلب مشروع إنشاء خط سكة حديد بلاد الحجاز الكثير من الأموال، لذا تم فتح باب التبرعات لتمويله، وتألفت لجنة لهذا الغرض برئاسة عزت باشا العابد[١٢] الذي وجه بدوره نداءً إلى العالم الإسلامي أشار فيه إلى أن الدافع الديني هو الذي ألهم السلطان العثماني تبني هذا المشروع لخدمة الإسلام والمسلمين[١٣].

وقد لاقت هذه الدعوة استجابة كبيرة من المسلمين، وبالتالي انهالت التبرعات المادية والأوقاف التي أوقفها بعض المسلمين لصالح إنشاء السكك الحديدية الحجازية[١٤].

كما فرضت ضريبة على الحجاج أُطلق عليها رسم إعانة السكك الحديدية الحجازية، وقدرت هذه الضريبة بريال واحد على كل حاج غير معسر، وكانت هذه الأموال تورد يوميًّا إلى شريف مكة[١٥]، كما فرضت نفس الضريبة على الرتب والنياشين في مصر، وتولت وزارة المالية تجميع هذه الأموال لصالح مشروع السكك الحديدية الحجازية [١٦].

وبالرغم من أن مشروع إنشاء السكك الحديدية الحجازية اعتمد في المقام الأول على التبرعات والإعانات، إلا أنه صدر منشور من الحكومة المصرية في عام ١٩٠٣م يُمنع بموجبه موظفو الدولة وعمالها من القيام بجمع الأموال أو التبرعات بأي شكل من الشعب لصالح إعانات السكة الحديد الحجازية؛ وذلك حتى لا يعتقد أحد من الشعب أن هذه التبرعات إلزامية عليه، لذا قام مجلس النظار باتخاذ هذا القرار ونشره على عموم المصالح الحكومية بالأراضي المصرية[١٧].

وقد قدر لهذا المشروع أن يكتمل، وافتتح خط سكة حديد الحجاز في عام ١٩٠٨م، وقد استخدمه الخديوي عباس حلمي الثاني أثناء رحلته إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج في عام ١٣٢٧هـ/ ١٩١٠م، حيث استخدم خط السكة الحديد المصرية من القاهرة إلى السويس، وبعد عبوره للبحر الأحمر استخدم الخط الحجازي للوصول إلى الأماكن المقدسة حتى المدينة المنورة، وفي طريق العودة بعد انتهاء مناسك الحج استخم أيضًا السكك الحديدية الحجازية حتى البحر المتوسط مارًّا بدمشق، ومنها انتقل عن طريق إحدى السفن البحرية إلى الإسكندرية، ومنها استخدم أيضًا الخط الحديدي حتى وصل إلى القاهرة[١٨].

وبالتالي أصبح طريق الحج بعد إنشاء السكك الحديدية سواء في مصر، أو في بلاد الحجاز محددًا، وتستخدمه الغالبية العظمى من الحجاج، وفي بعض الأحيان كان يختلف طريق الذهاب عن طريق العودة خصوصًا للحجاج القادمين من مصر والشمال الأفريقي.

وقد تأثرت رحلات الحج كثيرًا بتدمير أجزاء من خط سكة حديد الحجاز خصوصًا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤– ١٩١٨م)، وسيطرة كل من فرنسا وانجلترا على أجزاء منه؛ فقد وضعت الشركة الفرنسية يدها على القسم السوري من الخط، كما وضعت انجلترا يدها على القسم الفلسطيني والأردني منه، وقد حاول المسلمون تقديم اقتراح للحكومة المصرية بمطالبة كل من انجلترا وفرنسا بالموافقة على وضع خط السكة الحديدية الحجازية من بلاد الحجاز حتى دمشق والأردن وفلسطين تحت إدارة اسلامية من المتخصصين في ذلك[١٩].

وكانت نتيجة توقف خط السكة الحديدية الحجازية تأثر عدد الحجاج المسافرين إلى بلاد الحجاز، حيث انخفض عددهم من ٣٠٠ ألف حاج إلى ١٨ ألفًا فقط[٢٠]، أي انخفض عددهم بنسبة ٩٤%.

ثانيًا: أهم النتائج التي ترتبت على استخدام السكك الحديدية في رحلات الحج.

كان لاستخدام السكك الحديدية في رحلات الحج تأثيرها الكبير سواء على الحجاج أنفسهم، أو على النشاط الاقتصادي لبعض القرى التي كانوا يمرون بها في سفرهم كما يتضح مما يلي:

١. **توفير الوقت والجهد:**

أدى استخدام الحجاج للسكك الحديدية في الانتقال من مصر إلى بلاد الحجاز وخصوصًا بعد إنشاء السكك الحديدية الحجازية إلى اختصار الكثير من الوقت والجهد اللذين كانا يضيعان في السفر باستخدام الدواب، وهو ما يتضح من مقارنة الوقت الذي كان يقطعه الحجاج في رحلتهم إلى بلاد الحجاز في المسارات القديمة بالوقت الذي يستغرقه القطار في قطع المسافة نفسها؛ فعلى سبيل المثال كان الوقت الذي يستغرقه القطار لقطع المسافة ما بين القاهرة إلى السويس في عام ١٨٩٢م حوالي ١٠ ساعات وخمس دقائق، ثم انخفض في عام ١٩٠٧م إلى ٨ ساعات و١٥ دقيقة لنفس المسافة نتيجة إدخال المزيد من التحديثات على خطوط السكك الحديدية المصرية[٢١]، وبالتالي تم اختصار الوقت الذي كان يستغرقه الحجاج- بشكل كبير- في السفر لمدة أربعة أيام[٢٢] لقطع نفس المسافة، وما يترتب عليه أيضًا من اختصار للمجهود المبذول في ذلك.

كما يتضح أيضًا عند مقارنة بداية خروج المحمل في منتصف القرن التاسع عشر، وفي عام ١٩١٩م، حيث تم شحن المحمل الشريف في محطة العباسية في ٢٦ ذي القعدة ١٣٣٧هـ، وعودته في ٣٠ ذي الحجة من نفس العام، مما يدل على مدى اختصار الوقت الذي كان يستغرقه الحجاج في رحلة الحج، والتي كانت تستمر لمدة شهور[٢٣].

وقد ظهر ذلك واضحًا من وصف أحد الرحالة لاستقبال الناس للحجاج العائدين من الحج بقوله:" حيث أصبح المصريون وبخاصة الفقراء قليلًا ما يرسمون على بيوتهم صورًا للمحمل يسير في جنده، وإلى جانبه مركب بخارية أو قطار سكة حديد مما لا شيء فيه من معاني المشقة التي كان يصادفها الحجاج في طريقهم قبل ذلك"[٢٤].

٢ . توفير الأمان للحجاج:

كان الحجاج كثيرًا ما يتعرضون لهجمات البدو على جانبي الطريق أثناء مرورهم بالطرق البرية التي اعتادوا السير فيها، كما كان العربان يطلبون منهم دفع العوائد التي فرضوها عليهم نظير عدم التعدي عليهم، وقد شمل ذلك أيضًا الحجاج المرافقين للمحمل الشريف، وقد بلغت قيمة العوائد التي يدفعها أمير الحج المصري للبدو ببلاد الحجاز حوالي ١٢٠٠ ريال سنويًا[٢٥].

وأثناء إنشاء السكك الحديدية ببلاد الحجاز لاقت مقاومة شديدة من بعض البدو؛ وذلك لحرمانهم من العوائد التي كانوا يجمعونها من قوافل الحجيج التي تعد مصدر دخلهم الرئيسي[٢٦].

وبعد إنشاء السكك الحديدية سواء في مصر أو في بلاد الحجاز أدى ذلك إلى تقليل المخاطر التي كان الحجاج يتعرضون لها وبخاصة هجمات البدو، وسطوهم عليهم، ولكن لم تختف تمامًا، حيث تعرضت عربات السكك الحديدية للسطو، وسرقة صناديق الأموال الخاصة بالصرة؛ ففي عام ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م تعرض قطار الحجاج المصريين المرافقين للمحمل الشريف لسرقة خزينة الصرة منه، إذ اعتادت الحكومة المصرية منذ استخدام السكك الحديدية في نقل المحمل الشريف من مصر إلى السويس على وضعها في عربات قطار نقل الأمتعة والأثاث، ويتم وضع علامة مميزة على صناديق أموال الصرة مما أدى إلى سهولة سرقتها، ولذا تم تلافي هذه الأخطاء في السنوات التالية، حيث تم وضع خزينة الصرة في عربة مخصوصة للنقود، وتكون هذه العربة مع قطار ركب المحمل، وليست بقطار البضاعة، وعُين لها عدد من الحراس من العساكر داخل عربة القطار منعًا لحدوث أية سرقات[٢٧].

وبالتالي أصبحت عملية التأمين لأموال الصرة والحجاج من خلال استخدام السكك الحديدية أفضل بكثير من حيث صعوبة سطو البدو عليهما، وعدم وجود ضرورة لعدد كبير من الجنود لتأمينهما مقارنة باستخدام الطرق البرية. وبشكل عام أدى استخدام السكك الحديدية سواء في مصر أو في بلاد الحجاز إلى تقليل المخاطر التي كان الحجاج يتعرضون لها.

٣. تغيير النشاط الاقتصادي لبعض السكان:

ارتبط النشاط الاقتصادي لكثير من القرى بمرور قوافل الحج عليها، وتقديم الخدمات لها، فقد ارتبط النشاط السكاني لقرية الوجة بمرور ركب المحمل أثناء سفره بالطريق البري ببلاد الحجاز، حيث تنصب فيها الأسواق لعرض السلع التي كان يقبل عليها الحجاج، وتوزع فيها العوائد على العربان، وعندما تغير طريق سفر الحجاج، وتم استخدام السكك الحديدية تغير نشاط سكانها، وتحول إلى البحر وصيد الأسماك، وتجارة السمن والأصواف والفحم الخشبي خصوصًا مع ميناء السويس، فكانت تتم رحلة كل أسبوعين بين البلدين لنقل البضائع بينهما باستخدام الشركة الخديوية المصرية، ومن الغريب أن ظلت هذه القرية تابعة لسلطة الحكومة المصرية التي كانت تتولى تعيين المحافظ والقاضي بها إلى أن تغير مسار طريق الحج، واستخدمت السكك الحديدية الحجازية بدلاً من الطريق البري القديم، فتحولت تبعيتها لسلطة الدولة العثمانية[٢٨].

كما اتجه كثير من البدو إلى تغيير نشاطهم من الاعتماد على مرور قوافل الحجيج، وأخذ العوائد منهم، إلى اعتماد بعضهم على موارد أخرى كتقديم الخدمات اللازمة للحجاج بمكة والمدينة، أو العمل في السكك الحديدية، ومنهم من قاوم مد السكك الحديدية خوفًا من فقدانهم العوائد التي كانوا يحصلون عليها خصوصًا بعد إعلان الحكومة التركية عن عدم استمرارها في دفع العوائد للعربان[٢٩].

٤. تحديد أماكن الحجر الصحي[٣٠]:

ارتبط وجود الحجر الصحي بأماكن دخول الحجاج بمصر بعد عودتهم من بلاد الحجاز منعًا لانتشار الأمراض والأوبئة داخل البلاد، حيث نشأ الحجر الصحي الخاص بالحجاج في مصر في بئر عنبر، ثم انتقل إلى الطور نتيجة لتغيير طريق الحج إلى استخدام السكك الحديدية المصرية حتى السويس[٣١].

ويعد الحجر الصحي الذي وجد بالطور هو المحجر الرئيسي في البلاد، وتم تطويره- بشكل كبير- نظرًا لمرور عدد كبير من الحجاج عن طريق السويس، حيث كانت الحكومة المصرية تشترط على كل الحجاج المصريين وغير المصريين الذين يعودون من الحج عبر أراضيها تطبيق الحجر الصحي عليهم بالطور؛ ففي عام

١٩٠٩م رفضت الحكومة المصرية السماح للحجاج الروس بدخول مصر إلا بعد تطبيق الحجر الصحي عليهم في الطور[٣٢].

كما ارتبط وجود الحجر الصحي بكل من مدائن صالح وتبوك أيضًا بمرور الحجاج باستخدام السكك الحديدية الحجازية، وبالتالي فرض على الحجاج الذين يعودون من خلال هذا الطريق تطبيق الحجر الصحي عليهم بتبوك أو مدائن صالح[٣٣].

ولذا عدلت الحكومة المصرية عن قرارها السابق، وسمحت بدخول الحجاج مصر إذا تم تطبيق الحجر الصحي عليهم بأي من المحجرين (تبوك أو مدائن صالح)، ولم تجد داعيًا لتكراره نظرًا لارتفاع تكلفة القيام بالحجر الصحي[٣٤].

ونتيجة لاتخاذ بعض الحجاج طريق العودة السكك الحديدية الحجازية حتى حيفا، ومنها يستخدمون السفن البحرية حتى الإسكندرية، فقد تم إنشاء حجر صحي بالإسكندرية لكي يطبق على الحجاج العائدين إلى مصر الحجر الصحي منعًا لانتشار الأوبئة والأمراض المعدية إذا لم يطبق عليهم الحجر في أي من الكورنتينات خلال طريق العودة، وبالرغم من ذلك احتلت كورنتينة الطور المرتبة الأولى من حيث توافر الإمكانات الطبية بها، والتي تفوق كلًا من كورنتينتي تبوك ومدائن صالح[٣٥].

وقد فُرض الحجر الصحي على الخديوي عباس حلمي الثاني أثناء عودته من بلاد الحجاز بكورنتينة تبوك نظرًا لاتخاذه طريق السكك الحديدية الحجازية في رحلة العودة، ولذا أرسل تلغرافًا من تبوك إلى مجلس الصحة المصرية بإرسال مستلزمات الحجر الصحي إليه، وبناءً على ذلك لم يطبق الحجر الصحي عليه هو وأفراد أسرته المرافقين له مرة أخرى بالكورنتينات المصرية سواء في الطور أو الإسكندرية[٣٦].

وهكذا يتضح وجود علاقة وثيقة بين الطريق الذي يسلكه الحجاج أثناء عودتهم من بلاد الحجاز وأماكن الحجر الصحي، والتي ارتبطت- بشكل كبير- بالسكك الحديدية المصرية والحجازية التي استخدمها الحجاج في رحلات الحج.

٥. استخدام جوازات السفر(البسابورت)[٣٧]:

فرضت الحكومة المصرية على كل المسافرين إليها أو منها ضرورة استخراج جوازات السفر، وحصولهم على تصريح المرور طبقًا للقرار الوزاري الذي صدر في

عام ١٨٨٦م، وانطبق هذا القرار أيضًا على كل الحجاج سواء المصريين أو غير المصريين الراغبين في السفر إلى بلاد الحجاز، وذلك نتيجة لإقبال الحجاج على استخدام طريق السكك الحديدية المصرية مما أدى إلى زيادة الوفود من جنسيات مختلفة إلى البلاد المصرية بهدف الذهاب إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج[٣٨].

وكان على كل شخص يريد السفر لأداء فريضة الحج استخراج جواز السفر من المديرية التابع لها[٣٩]، وإذا كان غير مصري فعليه أن يستخرج جوازه من المديرية التي يسكن فيها، فقد دون بالوثائق بعض أشخاص من المغاربة والروس والتوانسة الذين كانوا يعيشون بمصر، واستخرجوا جوازاتهم منها عند سفرهم لأداء فريضة الحج، وإذا كانوا من خارج البلاد تولت مصلحة الحدود المصرية استخراج جوازات السفر لهم[٤٠].

٦. زيادة أعداد الحجاج عن طريق السكك الحديدية المصرية:

كان لاهتمام الحكومة المصرية بتطوير السكك الحديدية المصرية وتحديثها بصفة مستمرة في تللك الفترة أن زاد الإقبال على السفر من خلال الأراضي المصرية باستخدام السكك الحديدية بها، فقد تعددت جنسيات الحجاج الذين سافروا إلى بلاد الحجاز مرورًا بالأراضي المصرية من الجزائر وتونس وطرابلس، وأيضًا من روسيا، بالإضافة إلى الحجاج المصريين[٤١].

وقد لوحظت زيادة أعداد الحجاج الذين اتخذوا طريق السويس عندما حدث إلزام من الحكومة المصرية بضرورة استخراج جوازات السفر لكل الراغبين في أداء فريضة الحج مرورًا بالأراضي المصرية، وللمصريين أيضًا، إذ اقترحت مصلحة الصحة العمومية لتسهيل الإجراءات على موظفي ميناء السويس، والحجر الصحي بالطور أنه قبل موسم الحج في عام ١٩١٣م أن تكون التذكرة الشخصية التي يحملها الحجاج في دفتر صغير مع تذاكر السفر بر وبحرًا، وبعد مشاورات ما بين مصلحة السكك الحديدية والشركة الخديوية اتفقا على أن تكون التذاكر بلونين أحدهما باللون الأخضر للحجاج الذين يسلكون طريق السويس باستخدام السكك الحديدية، والآخر باللون الأحمر لمن يسلكون طريق الشام باستخدام السكك الحديدية الحجازية، وبناءً على ذلك تم توزيع التذاكر بلونيها بالمديريات لبيعها لراغبي السفر إلى بلاد الحجاز، وقد لاحظ

الموظفون في المديريات المسؤولون عن بيع التذاكر نفاذ جميع التذاكر التي باللون الأخضر، وتم سحب عدد قليل من التذاكر التي باللون الأحمر، ونتيجة الإقبال على التذاكر الخضراء مع ضيق الوقت أمام الحكومة لطباعة غيرها تم استخدام التذاكر الحمراء بعد قطع الأوراق الخاصة بالسفر عن طريق البحر وبلاد الشام والسكة الحديد الحجازية، والتأشير عليها، واعتُمد السفر بها عن طريق السويس[٤٢].

ويتضح أيضًا من سجلات قيد الحجاج أن الحجاج- بصفة عامة- غالبًا ما كانوا يفضلون السفر عن طريق السويس وخصوصًا في رحلة الذهاب، أما في العودة فوجد البعض من الحجاج الذين استخدموا السكك الحديدية الحجازية وصولاً إلى محطة حيفا، ثم تكملة رحلتهم بالبحر المتوسط[٤٣].

7. تكدس حجاج الشمال الإفريقي بالإسكندرية:

كانت مدينة الإسكندرية ملتقى حجاج الشمال الإفريقي في رحلة الذهاب أو العودة سواء سلكوا طريق البحر المتوسط، أو طريق السكك الحديدية المصرية، فكثيرًا ما كان حجاج الشمال الإفريقي يعانون من الإفلاس أثناء رحلة الحج، أو تعديات البدو وسرقة أموالهم، فكانوا يستطيعون الوصول إلى الإسكندرية، ويقومون بنصب خيامهم مطالبين الحكومة المصرية بمساعدتهم لنقلهم إلى بلادهم.

ففي عام ١٨٨٨م تعرض حوالي ٢٠٠ شخص من الحجاج المغاربة للإفلاس، واستطاعوا الوصول إلى الإسكندرية بعد أن استفادوا من الإعفاء من تذاكر السكك الحديدية المصرية، فقاموا بنصب خيامهم بإحدى الساحات الواسعة بالإسكندرية منتظرين مساعدة الحكومة المصرية بتدبير إحدى السفن البحرية لنقلهم إلى بلادهم، وظلوا في هذه الخيام لمدة ثلاثة شهور، وصادفت تلك الفترة موسم الشتاء، وظروف المناخ القاسية من الأمطار والبرودة، وبعد عدد من المراسلات بين الحكومة المصرية ومحافظ الإسكندرية تم تدبير إحدى السفن البحرية لنقلهم إلى بلادهم بمساعدة بعض الأهالي بتقديم التبرعات اللازمة لذلك[٤٤].

كما تقدم العديد من المغاربة بالالتماس من حاكم البلاد مساعدتهم للوصول إلى بلادهم بعد أدائهم فريضة الحج، وعدم توافر الأموال الكافية لذلك، ومنهم على سبيل

المثال الحاج إدريس المغربي الذي أتى لأداء فريضة الحج، ونفدت أمواله، ولذا يلتمس مساعدته على عودته إلى بلاده بالدار البيضاء[٤٥].

كذلك التمس كل من محمد علي وأحمد علي ترحيلهما إلى طرابلس الغرب(ليبيا حاليًا)، حيث كانا بالأقطار الحجازية، وسرقت أموالهما وأمتعتهما، واستطاعا الوصول إلى الإسكندرية، ويطلبان مساعدتهما للوصول إلى بلدهما[٤٦].

أيضًا وُجد كثير من الالتماسات بالوثائق يطلب فيها بعض الحجاج من الشمال الإفريقي مساعدتهم على عودتهم إلى بلادهم، وكان ينتج عن ذلك التكدس بالإسكندرية، ووجودهم بالشوارع يعانون من أوضاع غير إنسانية، ويعيشون على تبرعات بعض الأهالي، مع احتمالية انتشار بعض الأمراض والأوبئة [٤٧]

ثالثًا: الإجراءات التي اتخذتها الحكومة المصرية تجاه الحجاج المصريين وغير المصريين:

اهتمت الحكومة المصرية بالحجاج المصريين وغير المصريين وبخاصة الذين عبروا الأراضي المصرية لأداء فريضة الحج، فكانت وزارة المالية المصرية تتولى دفع رسوم انتقال الحجاج من خلال السكك الحديدية حتى السويس، ويتضح ذلك من مذكرة وزارة المالية في عام ١٨٨٣م إلى مجلس النظار، والتي جاء بها:" .... إن نظارة المالية توصي لمجلس النظار بأنها صرفت لمصلحة السكك الحديدية مبلغ ١٢٩٩١ قرشًا قيمة أجرة نقل الحجاج درجتها المصلحة المذكورة ضمن فواتير الأربعة أشهر الأولى من السنة الحاضرة..... وذلك تطبيقًا لما قرره مجلس النظار بجلسته المنعقدة في ٢٧ أبريل ١٨٨٢م"[٤٨].

ومع ارتفاع تكلفة نقل الحجاج أقدمت الحكومة المصرية على منح تخفيض يتراوح ما بين ٢٥ إلى ٣٠% من أثمان تذاكر السفر على خطوط السكك الحديدية لجميع الحجاج وذلك من محطة القيام إلى ميناء السفر ذهابًا وإيابًا[٤٩].

كذلك تقدم العديد من المصريين بالتماسات إلى الحكومة المصرية للسماح لهم بالحج على نفقتها[٥٠]، كما قدمت الحكومة المصرية الدعم المادي والعيني للحجاج الفقراء من المصريين وغير المصريين، وتمثل ذلك في صرف إعانة قدرها جنيه واحد لكل حاج فقير، و١٥ أقة من البقسماط[٥١].

كما تحملت الحكومة المصرية تكاليف نقل الكثير من الحجاج غير المصريين كإرسال حوالي ٣٠٠ حاج فلسطيني يلتمسون عند وصولهم إلى السويس بعد أدائهم مناسك الحج نقلهم إلى بلادهم عن طريق السكة الحديد، وقد خصصت لهم الحكومة المصرية قطارًا مخصوصًا حتى القنطرة، ثم استلامهم من قبل مندوب الحكومة الفلسطينية(٥٢).

ونتيجة لذلك ارتفعت نفقات الحكومة على الحجاج، بالإضافة إلى تعرض الكثيرين منهم للإفلاس سواء لسرقتهم، أو لفقرهم بطبيعة الحال، لذا فرضت الحكومة المصرية على كل شخص أراد الذهاب إلى بلاد الحجاز دفع مبلغ تأميني وقدره ١٥٠ قرشًا يسترده بعد عودته إذا لم يحتج إليه خلال فترة الحج(٥٣)، كما أصدرت قرارًا بعدم السماح بالسفر لأداء فريضة الحج لغير القادرين ماديًا على تحمل نفقات رحلة الحج(٥٤).

ولذا أعلنت الحكومة عن أسعار الحج كل عام، ومن رغب في السفر عليه دفعها عند حصوله على جواز السفر، بالإضافة إلى دفع مبلغ التأمين، وبالرغم من ارتفاع الأسعار إلا أن الحكومة كانت حريصة على عدم زيادة المبلغ التأميني(٥٥).

ومع الوقت كان يتم الإعلان عن خصومات لصالح مجموعة من الأفراد أو الموظفين. وفي عام ١٩١٩م أعلنت وزارة الداخلية أن يتحمل كل شخص يريد أداء فريضة الحج دفع مصاريف انتقاله بخطوط السكك الحديدية كما جاء في قرارها " ...هذا بخلاف أجرة السكة الحديد من بلد الحاج إلى حوض السويس ذهابًا وإيابًا التي يجب دفعها من طرفه"(٥٦).

ولزيادة الإقبال على السفر إلى بلاد الحجاز عن طريق السويس فقد أدى ذلك إلى تكدس الحجاج بها، مع عدم توافر البواخر الكافية لنقلهم إلى بلاد الحجاز، حيث كانت الحكومة المصرية تشترط عليهم ركوب بواخر الشركة الخديوية(٥٧)، والتي استغلت الحجاج المصريين، فكانت مصاريف الانتقال بها ٥٠ قرشًا في الذهاب و١٠٠ قرش في العودة لغير المصريين. أما بالنسبة للحجاج المصريين فكانت مصاريف انتقال الفرد بها تصل إلى ٥٠٠ قرش، ولذا قررت

الحكومة المصرية في عام ١٩٠٢م إطلاق حرية الحجاج المصريين في اختيار البواخر لنقلهم من وإلى السويس دون التقيد بشركة محددة(٥٨).

وبالتالي حرصت الحكومة المصرية على اتخاذ مجموعة من الإجراءات التي كان من شأنها تسهيل رحلات الحج سواء للمصريين أو غير المصريين، مع مراعاة عدم إثقال كاهلها بنفقات الحج.

ومن خلال العرض السابق يتضح لنا مدى التغيرات التي ترتبت على إنشاء السكك الحديدية بالنسبة لرحلات الحج، والتي كانت تعد طفرة في تلك الفترة مقارنة بالطرق البرية والمسافات التي كان يقطعها الحجاج للوصول إلى بلاد الحجاز، والتي كانت محفوفة بالمخاطر، وتعرضهم للهجوم من البدو واللصوص، ولذا حققت السكك الحديدية الكثير من الأمان، بالإضافة إلى توفير الجهد والوقت.

كما كان لوجود السكك الحديدية المصرية، وتفضيل الكثير من الحجاج غير المصريين السفر من خلالها أن أصبحت البلاد ملتقى للعديد من الحجاج من جنسيات مختلفة، وما ترتب على ذلك من نقل العادات والتقاليد بين المجتمعات المختلفة.

أيضًا ارتبط بوجود السكك الحديدية إقامة الكورنتينات الصحية وتحديثها منعًا لانتشار الأمراض والأوبئة داخل البلاد مما أدى إلى قلة حالات الوفيات بين الحجاج المصريين، كما وضح من سجلات قيد الحجاج المودعة بدار المحفوظات العمومية بالقلعة، والتي كانت لا تتجاوز ٣.٥% من نسبة الحجاج نتيجة للاهتمام بالحجر الصحي بالطور، وما به خدمات.

وقد كان لتدمير الخط الحديدي الحجازي وتوقفه أثر سيىء في نفوس المسلمين، وبالرغم من ذلك احتلت السكك الحديدية مكانة كبيرة في البلاد، وظلت تحتفظ بهذه المكانة بالرغم من ظهور السيارات، والتي تم اسخدامها في رحلات الحج أيضًا، ولكن مع استخدام الطائرات التي أخذت تزاحم السكك الحديدية في نقل الحجاج، وامتازت باختصارها للكثير من الوقت والجهد، ومع الوقت تراجعت أهمية السكك الحديدية في نقل الحجاج عبر الأراضي المصرية خصوصًا مع تدمير الخط

الحجازي، وتفوقت عليها الطائرات، فأصبحت الغالبية العظمى من الحجاج يفضلون السفر من خلالها.

ملحق رقم(3) خريطة للسكك الحديدية الحجازية في عام 1914م

الهوامش:

([1]) فقد كان طريق الحجاج المصريين يسلكه أيضًا حجاج الشمال الإفريقي ومنهم حجاج طرابلس الغرب والمغرب العربي، بالإضافة إلى حجاج الجنوب الإفريقي، وقد تغير طريق الحج المصري عبر القرون بحسب الظروف السياسية، والتطور التقني، ففي الفترة التي تمتد من الفتح الإسلامي لمصر وحتى منتصف القرن الخامس الهجري كان للطريق خلالها مساران في الجزيرة العربية؛ أحدهما داخلي، والآخر ساحلي، أما خلال الفترة من ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م إلى بداية القرن التاسع عشر فقد توقف استخدام الطريق البري في شمال الحجاز، وكان الحجاج المصريون يركبون السفن النيلية إلى قوس، ثم يسافرون بالقوافل إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر، ومنه يعبرون البحر إلى جدة ..... كما امتازت قافلة الحج التي تنطلق من الأراضي المصرية إلى بلاد الحجاز بأنها أفضل قوافل الحج من حيث التسليح، وتوفير االتأمين للازم للحجاج، ولذلك كانت تأتي إليها الوفود من الشمال الإفريقي لتخرج مع المحمل النبوي الشريف وكسوة الكعبة. لمزيد من التفاصيل انظر: محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، دار الأندلس الخضراء، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٠م، ص ٣٢٨، تفيدة سمير محمود سري: سجلات قيد الحجاج المصريين، دراسة أرشيفية وثائقية ١٩٠٥- ١٩١٣م، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، وثائق ومكتبات، كلية الآداب جامعة القاهرة، ص ١٢.(وقد ذكرت في دراستها أن بداية استخدام طريق السويس ترجع إلى عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م، وهذا التاريخ يعد متأخرًا، حيث استخدم طريق السويس منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر خصوصًا مع تأمين محمد علي باشا لطريق السويس لصالح تجارة العبور بين الهند وانجلترا، وقد استخدمه الحجاج أيضًا ولكن على نطاق ضيق، ثم توسع استخدامه مع مد خطوط السكك الحديدية كما سيتم تناوله في الدراسة، كما استخدم محمد سعيد باشا وأسرته طريق السويس أثناء أداء فريضة الحج حيث سافر في عام ١٨٥٩م).انظر: محمد فؤاد شكري: مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١م، ص ٣١، خلف عبد العظيم الميري: تاريخ البحرية التجارية المصرية ١٨٥٤- ١٨٧٩م، تقديم: يونان لبيب رزق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٦٤٧.

([2]) لقد امتد خط السكك الحديدية بالسودان من وادي حلفا إلى الخرطوم، ثم أكمل في نهاية عام ١٨٩٩م، وأكمل خط السكة الحديد بين سواكن وبربر في عام ١٩٠٦م، وأدي ذلك أيضًا

إلى تغيير مسار طريق الحج في الجنوب، حيث كان يتم تجميع الحجاج من خلال السكك الحديدية السودانية حتي سواكن، ومنها تنطلق قوافل الحجيج إلى بلاد الحجاز، وأدخلت عليها تحديثات كثيرة من أجل خدمة الحجاج بها، وكثيرًا ما أشارت الوثائق إلى وجود تعاون بين البواخر المصرية في نقل الحجاج من ينبع وجدة ببلاد الحجاز إلى ميناء سواكن. لمزيد من التفاصيل انظر: مجلس الوزراء والنظار: الكود الأرشيفي ٠٠٢٣٩٧- ٠٠٧٥، رقم المحفظة ٨/٢/ج، مجموعة رقم ٧٠ داخلية، موضوع مذكرة اللجنة المالية بالموافقة على فتح اعتماد خصوصي لمجلس الصحة البحرية والكورنتينات لإصلاح خط السكة الحديد المقام على رصيف محجر سواكن لنقل أمتعة الحجاج وخلافها، بتاريخ ١٩١٣/١٢/١م، محافظ الأبحاث: محفظة رقم ٢٦ أبحاث السودان، مجموعة رقم ٢٤١، ملف رقم ١، بتاريخ غرة رمضان ١٢٩٠هـ/ إلى غاية شوال ١٢٩٠هـ، وثيقة بعنوان من وكيل وابور بوستة خديوية بالسويس إلى المعية السنية، ص ٦٧. انظر أيضًا: محمد عمر البشير: تاريخ الحركة الوطنية بالسودان ١٩٠٠- ١٩٦٩م، ترجمة: هنري رياض، وليم رياض، الجنيد علي عمر، مراجعة: نور الدين سامي، الدار السودانية للكتب، السودان، ١٩٨٠م، ص ٤١.

(٣) أمين سامي باشا: تقويم النيل، المجلد الأول، ج ٣، ط ٢، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٣٥٠. انظر أيضًا: خلف عبد العظيم الميري: مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٤) خلف عبد العظيم الميري: مرجع سابق، ص ٨٢.

(٥) وقد استخدم الحجاج طريق السويس منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حيث كان الحجاج القادمون إلى الإسكندرية ينقسمون إلى ثلاث مجموعات؛ إحداهما عن طريق الحج البري حول خليج العقبة، والثانية عن طريق القصير، والثالثة عن طريق السويس وخصوصًا بعد قيام محمد علي باشا بتأمين طريق القاهرة السويس من اللصوص وقطاع الطرق لخدمة مرور التجارة الهندية، ولكنه لم يستخدم على نطاق واسع إلا بعد إنشاء السكك الحديدية. رتشارد ن. بيرتون: رحلة بيرتون إلى مصر وبلاد الحجاز، ج ١، ترجمة: عبد الرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ص ١٣١، ١٤١ ، شارل ديدييه: رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م، ترجمة: محمد خيري البقاعي، دار الفيصل الثقافية، الرياض، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٥٤.

([٦]) الوقائع المصرية: السنة السابعة والسبعون، نمرة ١٢٢، بتاريخ السبت ١٢ رمضان ١٣٢٥هـ/ ١٩ أكتوبر ١٩٠٧م، ص ٢٢٩٧.

([٧]) مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠٠٧٥٤٣- ٠٠٧٥، داخلية (الحج والمحمل)، وثيقة بعنوان صورة ما تحرر عن رئاسة مجلس النظار لنظارة المالية، بتاريخ ١١ ذي القعدة ١٣١٥هـ/ الموافق ٢ أبريل ١٨٩٨م، نمرة ٧.

([٨]) ديوان المالية: الكود الأرشيفي ٠٣٤١٠٤- ٣٠٠٣، دفتر الصادر من سعادة أمير الحج، وثيقة بعنوان الصادر لجهات مذكورة، بتاريخ ١٤ مايو ١٨٩٢م ، ص ٤.

([٩]) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠١١٢٥٧- ٠٠٦٩، ملف رقم ٦، بعنوان من أمير الحج تقرير تفصيلي عن خط سير المحمل الشريف وما صادف من الحوادث أثناء السفر منذ قيامه من القاهرة حتى عودته إليها، بتاريخ ١٣٢٢هـ/ ٧مايو ١٩٠٥م، ص ١.

([١٠]) الوقائع المصرية: نمرة ٤٠، السنة الرابعة والسبعون، بتاريخ الأربعاء ٢٠ محرم ١٣٢٢هـ/ الموافق ٦ أبريل ١٩٠٤م، ص ٦٢١.

([١١]) فقد ذكرت بعض الآراء أن الغرض الأساسي من قيام السلطان عبد الحميد الثاني بإنشاء خط السكة الحديد ببلاد الحجاز هو تدعيم موقفه باعتباره زعيمًا روحيًّا لمسلمي العالم، وأنه انغمس في حرب طويلة ودموية في اليمن، ورأي فيه وسيلة لربط هذا الإقليم والمناطق الحجازية النائية مباشرة بالعاصمة استانبول، كما كان يأمل من خلاله إلى تعزيز قبضة الدولة العثمانية في مناطق غربي شبه الجزيرة العربية، وربما وسطها، كما سيؤدي ذلك الخط إلى تعزيز نمط الحياة الاقتصادية بين الشام والحجاز، وبين ولايات الدولة العثمانية الأخرى وقد ذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته أن هذا الخط وسيلة لتنفيذ فكرة الجامعة الإسلامية وتقوية الرابطة بين المسلمين. لمزيد من التفاصيل انظر. السلطان عبد الحميد: مذكرات السلطان عبد الحميد، ط٣، تقديم وترجمة محمد حرب، دار القلم، دمشق، ١٩٩١م، ص ص ٢٤، ٢٥.انظر أيضًا: نزار علوان عبد الله: سكة حديد الحجاز وأشراف مكة المكرمة ١٩٠٠- ١٩١٤م، رؤية تاريخية لمراحل البناء والموقف المعارض، قسم التاريخ، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، بغداد، د.ن، ص٤.

([١٢]) عزت باشا العابد: ولد بدمشق في عام ١٨٥٥م، وعاش في استانبول، ثم عين قاضيًا في مقدونيا، ثم عاد إلى استانبول مرة أخرى ليعمل قاضيًا بها في المحاكم التجارية التي تبت في الخلافات التي تنشأ بين الرعايا العثمانيين والأجانب، ثم أصبح أقرب المسؤولين للسلطان

عبد الحميد الثاني خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، بل المستشار الأول في الدولة، وإليه يعزى الفضل في إنشاء سكة حديد الحجاز، وظل في منصبه كمستشار خاص للسلطان حتى عزله. انظر: نزار علوان: مرجع سابق، هامش ١٨.

(١٣) المرجع السابق: ص ٥.

(١٤) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠١١٢٨٢- ٠٠٦٩، ملف رقم ١٥، بعنوان تقرير خطاب بشأن تعطيل الخط الحديدي الحجازي الذي أنشيء بأموال المسلمين وتبرعاتهم المادية والمعنوية لأداء فريضة الحج.

(١٥) محمد بن حسن بن عقيل: مرجع سابق، ص ٦٨٧.

(١٦) مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠١٢٠١٩- ٠٠٧٥، ديوان خديوي، مكاتبة من ديوان تركي خديوي إلى مجلس النظار بشأن الإحسان رسم إعانة السكة الحديد الحجازية على المنعم عليهم بالرتب والنياشين، بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٠٥.

(١٧) مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠٢٣٦٦٥- ٠٠٧٥، مالية، ملف بعنوان منشور إلى عموم النظارات بعدم تداخل أحد من موظفي وعمال الحكومة في اكتتاب سكة حديد الحجاز، بتاريخ ٣٠ ربيع أول ١٣٢١هـ/ ٢٦ يونيو ١٩٠٣م، منشور بعنوان: Circulaire, adresse`e par la pre`sidence du conseil des Ministres aux differ`rents De`oartement Ministe`riels en date du ler Rabi Tani 1321(27Juin 1903) P. 12.

(١٨) محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر، مطبعة الجمالية، مصر، ١٣٢٩هـ، ص ص ٣٢٠- ٣٢٥. انظر أيضًا: محمد بن حسن بن عقيل: مرجع سابق، صفحات متفرقة ص ص ٧٥٤، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٥٠، ٨٥١.

(١٩) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠١١٢٨٢- ٠٠٦٩، ملف رقم ١٥، موضوع تقرير خطاب بشأن تعطيل الخط الحديدي الحجازي الذي أنشيء بأموال المسلمين، وثيقة بعنوان خطاب من نائب رئيس لجنة الدفاع عن الخط الحجاز إلى الملك فؤاد الأول.

(٢٠) المصدر السابق، ونفس الوثيقة.

(٢١) ديوان المالية: الكود الأرشيفي ٠٣٤١٠٤- ٣٠٠٣، وثيقة بعنوان الصادر لجهات ، بتاريخ ١٤ مايو ١٨٩٢م، ص ٤؛ وثائق عابدين: الكود الأرشيفي ٠٢٦٥٦٠٨- ٠٠٦٩،

موضوع عرض خطاب رئيس القطاع الهندسي بمصلحة السكك الحديدية والتلغراف وميناء الإسكندرية الخاص بتجديد خط سكك حديد السويس على ديوان الخديوي، بتاريخ ٢٠ اكتوبر ١٨٨٠م.

([٢٢]) شارل ديدييه: مصدر سابق، ص ص٥٧، ٥٨.

([٢٣]) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠١١٢٧١- ٠٠٦٩، محفظة رقم ٥٤٧، ملف رقم ٤، منشور وزارة الداخلية نمرة ٦، عن خطة سفر الحجاج المصريين برفقة المحمل الشريف بتاريخ ٢٠ يولية ١٩١٩م.

([٢٤]) محمد بن حسن بن عقيل: مرجع سابق، ص ٨٥٠.

([٢٥]) مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠٠٧٥٥٠- ٠٠٧٥، داخلية الحج والمحمل، محفظة رقم ١٨/أ مجموعة ٢٥ داخلية، موضوع تقارير عن الحج ١٩٠٤- ١٩٢٣م.

([٢٦]) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠١١٢٨٢- ٠٠٦٩، محفظة رقم ٥٤٧، تقرير عام عن الحج..انظر أيضًا: آرثر جون وافل (الحاج علي الزنجباري): رحلة الحاج المعاصر إلى مكة عام ١٩٠٨م، ترجمة: ريم بوزين الدين، تعليق ومراجعة: أحمد أبيش، ط ١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠١١م، ص ص٨١- ٨٣.

([٢٧]) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠١١٢٥٧ – ٠٠٦٩، ملف رقم ٦، بعنوان تقرير تفصيلي عن خط سير المحمل الشريف وما صادف من الحوادث أثناء السفر عند قيامه من القاهرة وحتى عودته إليها ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م. (ولزيادة تأمين الحجاج المصريين من وقوعهم فريسة للبدو وسطوهم عليهم ببلاد الحجاز أن قامت الحكومة المصرية بمخاطبة وزارة الداخلية بندب أحد كبار رجال البوليس للعمل في موسم الحج ببلاد الحجاز للإشراف على الحجاج المصريين، وتأمينهم من السرقة والسطو).

([٢٨]) محمد بن حسن بن عقيل: مرجع سابق، ص ص ٨١٩، ٨٢٠.

([٢٩]) آرثر جون وافل(الحاج علي الزنجباري): مصدر سابق، ص ٨٣؛ محمد لبيب البتنوني: مصدر سابق، ص ٣١٥.

([٣٠]) أطلق على الحجر الصحي الكورنتينة؛ وهي في الأصل مصطلح فرنسي، وأول من استخدمها هم البنادقة لكثرة علاقاتهم مع الشرق، ولانتشار الأوبئة به قاموا بعمل الكورنتينة، وتعيين متخصصين على متن سفنهم القادمة من الشرق للتأكد من خلو البضائع والأفراد من الأمراض المعدية، ثم انتقلت الكورنتينة إلى العديد من المدن على البحر المتوسط، وتم وضع

أول قانون لتنظيمها في ٣ مارس ١٨٢٢م، وأدخلت عليها تعديلات في أعوام ١٨٤٧م و١٨٤٩و ١٨٥٠م، أما بداية دخولها فكانت في عام ١٨٢٠م في عصر محمد علي باشا عندما أنشيء المجلس، وزادت عنايته بالكورنتينة، وخصوصًا في عام ١٨٣١م عندما انتشرت الكوليرا في مصر، وتم وضع أول محجر صحي في مصر بالإسكندرية في عام ١٨٣٢م (Lazarette) في الشاطبي، وقد ألغي في عام ١٨٣٩م، ثم أهمل بعد ذلك إلى أن جاء عام ١٨٥٤م، وأنشأ سعيد باشا مجلسًا صحيًّا، وألحقه بنظارة الداخلية في عام ١٨٥٧م، وجعل من حقه النظر في الأمور الصحية من داخل البلاد، كما شكل لجنة للنظر في الأمور البحرية الصحية (الكورنتينة)، ثم صدر قرار في عام ١٨٨١م بفصلهما عن بعضهما، وسميت الأولى مصلحة الصحة العمومية، ومقرها مصر، وسميت الثانية مجلس الصحة البحرية والكورنتينات، ومقره الإسكندرية، وهذه الكورنتينات كلها لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج لأنهم اعتقدوا أن طول المسافة التي يقطعونها للوصول إلى مصر كافية لتطهيرهم من الأوبئة، ولكن عندما اجتاحت الكوليرا بلاد الحجاز في عام ١٨٥٨م مما جعل الكثيرين يفرون منها إلى القصير بمصر، فاحتاطت الحكومة المصرية، وضربت الحجر على الحجاج لأول مرة في بئر عنبر في وسط المسافة بين القصير وقنا. أما الحجاج الذين جاءوا عن طريق العقبة إلى السويس فقد منعوا من دخول البلاد، وفرض عليهم الحجر في عجرود. لمزيد من التفاصيل انظر: محمد لبيب البتنوني: مصدر سابق، ص ص ٣٠٥- ٣٠٧.

(٣١) مجلس الوزراء والنظار: الكود الأرشيفي ٠١٥٨٨١- ٠٠٧٥، مجموعة ٢٥ داخلية، مجلس شورى القوانين، موضوع مكاتبة مجلس شورى القوانين، بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٠٢م. انظر أيضًا: محمد لبيب البتنوني: مصدر سابق، ص ٣٠٧.

(٣٢) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠١١٢٦٠- ٠٠٦٩، وثيقة بعنوان تلغراف ديوان خديوي لسعادة رئيس الديوان الخديوي بتاريخ ١٩٠٩م.انظر أيضًا: فيليب بن يوسف جلاد: قاموس الإدارة والقضاء، مج ٢، ط ٣، تقديم: محمد صابر عرب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٣٥٧.

(٣٣) ديوان الداخلية: الكود الأرشيفي ٠١٥٩٠٠- ٢٠٠١، ملف رقم ٧٠٢، بخصوص اجراءات نقل الحجاج الفترة من ٢٧ مايو ١٨٨٠م – ٢٧ يونيو ١٨٨٠م، وثيقة بعنوان: Intendance Ge`ne`rale Sanitaire d`Egypte Pelerinace de L`anne`e 1879.

([٣٤]) مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٥١١٣٤٥- ٠٠٧٥، ديوان خديوي ٢٢٩، صورة مكاتبة من الديوان التركي الخديوي إلى مجلس النظار بشأن الحجاج العائدين بطريق السكة الحديدية الحجازية، وثيقة بعنوان صورة مكاتبة إلى عطوفة رئيس مجلس النظار من الديوان التركي الخديوي، بتاريخ ٧ يناير ١٩٠٩م.

([٣٥]) مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠٢٦٩٧١- ٠٠٧٥، محفظة رقم ٥٣٣، موضوع مكاتبة من ناظر الداخلية لمجلس النظار بإشعاره بوصول المحمل، وخط سيره حتى وصوله إلى القلعة، بتاريخ ٢٠ صفر ١٣٠٠هـ/ ١٣ ديسمبر ١٨٨٢م.

([٣٦]) مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠١٣١٩٦- ٠٠٧٥، الرحلات الخديوية، محفظة رقم ٢٥١، مجموعة رقم M.SA.٧٨ ، خاص بسفر الجناب العالي إلى الحجاز، بتاريخ ١٧ يناير ١٩١٠م إلى ٢٠ يناير ١٩١٠م، وثيقة بعنوان تلغراف من تبوك إلى عطوفة قائمقام خديوي القاهرة.

([٣٧]) كان يشترط لدخول القاهرة لغير المصريين الحصول على بطاقة دخول خاصة للحجاج الذين كانوا يسلكون طريق السويس قبل مد السكة الحديد إليها، فلا يسمح لهم بركوب السفن في البحر الأحمر دون وجود هذه البطاقة، ثم بعد ذلك بدأت جوازات السفر تطبق داخل الأراضي المصرية، حيث وضعت لائحة بضرورة استخراج جوازات السفر لكل القادمين إليها أو المسافرين منها، وذلك بناء على طلب وزير خارجية الدولة العثمانية، وطلب السفارة بروما، وتم وضع اللائحة المنظمة لاستخراج جوازات السفر (البسابورت) في عام ١٨٨٦م. لمزيد من التفاصيل انظر: مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠٠٧٤٨١- ٠٠٧٥، محفظة رقم ١٧/ ج، مجموعة ٥٢ داخلية، موضوع بخصوص الخطاب من خيري باشا رئيس الديوان الخديوي إلى رئيس الوزراء، والذي يطلب فيه إعداد جوازات سفر بناء على طلب وزير خارجية تركيا، وذلك بناء على طلب سفارتنا في روما لأن الأشخاص القادمين من نابولي لابد أن تكون لهم فيزا دبلوماسية، وثيقة بعنوان قرار وزاري بوضع الأحكام الخاصة بجوازات السفر، بتاريخ ٢/ ١/ ١٨٨٦م. انظر أيضًا: شارل ديدييه: مصدر سابق، ص ٥٣.

([٣٨]) فلقد رصد الرحالة بيرتون في زيارته لبلاد الحجاز (والذي تنكر في زي طبيب هندي مسلم) عن طريق مصر مستخدمًا طريق السويس وجود جنسيات مختلفة من المسلمين، فلم تقتصر فقط على حجاج الشمال الإفريقي، حيث رصد وجود حجاج من وسط آسيا من فارس

وتركيا، بالإضافة إلى الحجاج من السودان والنيجر والجبرت من الحبشة وغيرهم الذين كانوا يفضلون الذهاب لرحلات الحج عن طريق الأراضي المصرية. لمزيد من التفاصيل. انظر أيضًا: رتشارد ن. بيرتون: ج1، مصدر سابق، ص ص ١٤٦، ١٤٧.

(٣٩) الوقائع المصرية: نمرة الجريدة ١٢١، السنة الثالثة والسبعون، بتاريخ الأربعاء ٣٠ رجب ١٣٢١هـ/ ٢١ أكتوبر ١٩٠٣م، ص ١٨٤١.

(٤٠) ونظرًا لعدم وجود الصور الفوتوغرافية أو انتشارها في تلك الفترة فقد كانت تكتب مواصفات الشخص صاحب جواز السفر من حيث الطول والقصر، ولون العيون والبشرة، وأية علامة مميزة فيه... وهكذا، حيث تحتوي سجلات الحجاج المودعة بدار المحفوظات العمومية في خانة الملحوظات على وصف تفصيلي للشخص صاحب الجواز (انظر ملحق رقم ١)، وكانت توجد حالات من المسافرين بجواز أحد أقربائهم، وقد دون ذلك بالسجلات. دار المحفوظات العمومية: دفتر نمرة (١٤) لقيد حجاج مديرية المنيا،ج٢، محافظة السويس طلعة ١٣٢٥ رجعة ١٣٢٦هـ، سجل رقم ١٥٥٦، عين ١٥، مخزن ٤٧ ؛ سجل قيد حجاج مديرية جرجا، دفتر نمرة ١٤، طلعة ١٣٢٤هـ رجعة ١٣٢٥هـ، سجل رقم ٢٨، عين ١٥مخزن ٤٧؛ مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠٠٧٥٠٨- ٠٠٧٥، محفظة رقم ١٧/ ج، مجموعة ١٨٨ داخلية، موضوع مذكرة اللجنة المالية بالموافقة على ما أجرته نظارة الداخلية على اللائحة الخاصة بسفر الحجاج بتاريخ ١٩/١/ ١٩١٤م.

(٤١) ديوان الداخلية: الكود الأرشيفي ٠١٩٣٨٠- ٢٠٠١، ملف رقم ١٦٨٧، مجموعة الداخلية (مجلس الصحة والبحرية والكورنتينة) موضوع خاص بالجدول المشتمل على ألداد وجنسيات الحجاج الذين غادروا السويس إلى جدة، بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٨٨٢م؛ دار المحفوظات العمومية: سجل لقيد الحجاج المصريين المسافرين برفقة المحمل الشريف في يوم ٢٥ ذي القعدة ١٣٢٥هـ/ ١٢ سبتمبر ١٩١٧م، سجل رقم ٢٥١٩، عين ٢٦، مخزن ٤٧ محافظة مصر، ص ١؛ محافظة الإسكندرية، ص ٢؛ سجل لقيد حجاج محافظة السويس جزء أول، طلعة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، سجل رقم ١٥٦٦، عين ٣٥، مخزن ٤٧، ص ١.

(٤٢) ديوان المالية: الكود الأرشيفي ٦٩٤١٨- ٣٠٠٣، ملف رقم ١٨٤- ٩١/ ٧، وزارة المالية قلم المحفوظات، موضوع بيع تذاكر الحجاج بواسطة بعض موظفي الحكومة نظير منحهم مكافآت.

([٤٣]) دار المحفوظات العمومية: سجل لقيد الحجاج طلعة ١٣٢٥هـ، ورجعة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م

([٤٤]) مجلس الوزراء والنظار: الكود الأرشيفي : ٠٠٧٥٣٣- ٠٠٧٥، مجموعة ٢٥ داخلية، مسألة الحجاج المصريين والمغاربة الموجودين في جهة ينبع بتاريخ ٢٨/ ٩/ ١٨٨٩، وثيقة بعنوان مذكرة من محافظ الإسكندرية إلى مجلس النظار.

([٤٥]) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠١١٢٦٧- ٠٠٦٩، ملف رقم ١٦، بعنوان التماس من إدريس المغربي إلى السلطان بطلب صدور الأمر بتسفيره إلى بلده الدار البيضاء بتاريخ ٥ يونية ١٩١٥م.

([٤٦]) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠٠١١٧٣٨- ٠٠٦٩، محفظة رقم ٥٦١، ملف ٣، بعنوان التماس مقدم من محمد علي وأحمد علي إلى ولي النعم، بتاريخ ١٦ يونية ١٩٠٧م.

([٤٧]) وزارة الخارجية: الكود الأرشيفي ٠٢٧١٠٢- ٠٠٧٨، مجموعة رقم ١/١٣/ ١٣٧موضوع المعايير والأساليب الخاصة بنقل الحجاج الأجانب عن طريق مصر، الجزء الأول بتاريخ ٨/٥/ ١٩٢٠، وثيقة بعنوان جناب المحترم وكيل الوزارة بمصلحة الصحة العمومية ص ٦.

([٤٨])بتاريخ ٢٧ إبريل ١٨٨٢م، ص ٤٦. انظر أيضًا وثيقة بعنوان: Not au bonscil Ministres le Ministe`re des Finances a L`honmeur.

([٤٩]) مجلس الوزراء: الكود الأرشيفي ٠٣٥٧٣٥- ٠٠٨١، وثيقة بعنوان منح تخفيض من أثمان تذاكر السفر على خطوط السكك الحديدية لجميع مجلس الوزراء والنظار: الكود الأرشيفي ٠٠٧٥٢٢- ٠٠٧٥، محفظة رقم ١٨/أ، مجموعة رقم ٢٥ داخلية، موضوع مذكرة المالية بشأن مبلغ منصرف من مصلحة السكك الحديدية لنقل الحجاج بتاريخ ١/١١/ ١٨٨٣م، وثيقة بعنوان مذكرة مرفوعة لمجلس النظار، الحجاج.

([٥٠]) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠١١٢٧٠- ٠٠٦٩، محفظة ٥٤٧، ملف ٣، بعنوان التماسات مقدمة من بعض الأشخاص إلى السلطان حسين كامل باشا بطلب المساعدة لتأدية فريضة الحج ١٩١٨م، بتاريخ ١٤ مايو – ١٧ أغسطس ١٩١٨م؛ الكود الأرشيفي ٠١١٢٥٩- ٠٠٦٩، بعنوان التماسات مقدمة من بعض الأشخاص إلى الخديوي بشأن طلب المساعدة للذهاب إلى الأراضي الحجازية لتأدية فريضة الحج من مارس ١٩٠٧ إلى ٢٣ ديسمبر ١٩٠٧م.

([٥١]) ديوان المالية: الكود الأرشيفي ٠٤٦٤٤٩- ٣٠٠٣، قلم شبارسات المالية، موضوع أوامر عالية للخديوي إسماعيل باشا خاصة بمعاملة الحجاج الفقراء الأجانب، وثيقة بعنوان صورة الإفادة الواردة من معاون السنية لمحافظ الإسكندرية بتاريخ ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م، ص ١ ووثيقة بعنوان مكاتبات من وإلى المالية عن مبالغ صرفت على فقراء الحجاج بجهتي الإسماعيلية وبورسعيد، بتاريخ ١٢٨٨هـ/ ١٨٧٢م، ص ٢.

([٥٢]) وزارة الخارجية: الكود الأرشيفي ٠٢٧١٠٢- ٠٠٧٨، مجموعة رقم ١٣/ ١/ ١٣٧، وثيقة خاصة بنقل الحجاج الأجانب.

([٥٣]) مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠٠٧٤٨٧- ٠٠٧٥، داخلية جوازات السفر، محفظة ١٧/ج، مذكرة ١/١٩/١، بعثوان مذكرة نظارة الداخلية بطلب تحصيل ١٥٠ قرشًا من كل حاج يتقدم للمديريات أو المحافظات بطلب جواز سفر إلى الأقطار الحجازية.

([٥٤]) مجلس الوزراء والنظار: الكود الأرشيفي ٠٠٧٥٣٤- ٠٠٧٥، داخلية الحج والمحمل، موضوع عدم الترخيص بالسفر للحجاز لمن لا يقدر على مصاريف الذهاب والعودة، بتاريخ يناير ١٨٩٠م.

([٥٥]) مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠٠١٣٥٢- ٠٠٧٥، الإجراءات القانونية والصحية التي يجب اتخاذها عند سفر الحجاج وعودتهم من الأراضي الحجازية، وثيقة بعنوان: Traduction d`une Lettre adresse`e a` son Excellence le pre`sident du consell des Ministres par son Excellence le pre`sident du conseil Le`gislatifi en date du 22 De`cembre 1902 N 41.؛ الوقائع المصرية: نمرة الجريدة ١٢٢، السنة السابعة والسبعون، بتاريخ السبت ١٢ رمضان ١٣٢٥هـ/ ١٩ أكتوبر ١٩٠٧م، ص ٢٢٩٧.

([٥٦]) محافظ عابدين: الكود الأرشيفي ٠١١٢٧١- ٠٠٦٩، محفظة رقم ٥٤٧، ملف ٤، منشور نمرة ٤، من وزارة الداخلية بشأن سفر الحجاج المصريين لأداء فريضة الحج، بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩١٩.

([٥٧]) مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠٢٧٧١٨- ٠٠٧٥، رقم ٥٤١، وثيقة بعنوان: traduction d`une lettre adresse`e a` S.E le pre`sident du conseil des Ministres par S.E. le pre`sident du conseil le`gislatif en date du 10 De`cember 1900

***([٥٨]) (كان يتم نقل الحجاج من السويس إلى بلاد الحجاز والعكس من خلال بواخر الشركة الخديوية، وكانت الحكومة المصرية تفرض عليهم ذلك، ولكن عقب بيعها سمح للحجاج باختيار ما يشاءون من البواخر)، مجلس النظار والوزراء: الكود الأرشيفي ٠٠١٦٢٤٦- ٠٠٧٥، الجمعية العمومية اقتراحات، موضوع اقتراح الجمعية إطلاق حرية الحجاج في السفر بأي وابور أرادوا، بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٠٢م؛ الكود الأرشيفي ٠١٦٢٢٩- ٠٠٧٥ وثيقة بعنوان من رئاسة مجلس النظار إلى

نظارة الداخلية، بتاريخ ١٥ مارس ١٩٠٢م؛ ديوان الداخلية: الكود الأرشيفي٠١٩٩٤٨- ٢٠٠١، ملف ٤٦٩٩، موضوع بخصوص إرسال مذكرة وكالة فرنسا المشيرة إلى الفوضى المرتكبة من المتعهد المكلف بابحار ونزول الحجاج بتاريخ ٥ يوليو ١٨٨٨م- ٢٥ يوليو ١٨٨٨م.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق غير المنشورة:

أ- الوثائق المودعة بدار الوثائق القومية وهي:

١- وثائق مجلس النظار والوزراء.

الكود الأرشيفي	عنوان السجل
٠٠٧٥ -٠٠٧٤٨٧	داخلية جوازات السفر، محفظة ١٧/ج، مذكرة ١/١٩/١، بعنوان مذكرة نظارة الداخلية بطلب تحصيل ١٥٠ قرشاً من كل حاج يتقدم للمديريات أو المحافظات بطلب جواز سفر إلى الأقطار الحجازية
-٠٠١٦٢٤٦ ٠٠٧٥	الجمعية العمومية اقتراحات، موضوع اقتراح الجمعية اطلاق حرية الحجاج في السفر بأي وابور أرادوا، بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٠٢م.
٠٠٧٥ -٠٠٧٥٢٢	محفظة رقم ١٨/أ، مجموعة رقم ٢٥ داخلية، موضوع مذكرة المالية بشأن مبلغ منصرف من مصلحة السكك الحديدية لنقل الحجاج بتاريخ ١/١١/ ١٨٨٣م.
٠٠٧٥ -٠٠٧٥٣٣	مجموعة ٢٥ داخلية، مسألة الحجاج المصريين والمغاربة الموجودين في جهة ينبع بتاريخ ٢٨/ ٩/ ١٨٨٩م.
٠٠٧٥ -٠٠٧٥٠٨	محفظة رقم ١٧/ ج، مجموعة ١٨٨ داخلية، موضوع مذكرة اللجنة المالية بالموافقة على ما أجرته نظارة الداخلية على اللائحة الخاصة بسفر الحجاج بتاريخ ١/١٩/ ١٩١٤م.
٠٠٧٥ -٠٠٧٤٨١	محفظة رقم ١٧/ ج، مجموعة ٥٢ داخلية، موضوع بخصوص الخطاب من خيري باشا رئيس الديوان الخديوي إلى رئيس الوزراء والذي يطلب فيه إعداد جوازات سفر بناء على طلب وزير خارجية تركيا وذلك بناء على طلب سفارتنا في روما، بتاريخ ٢/ ١/ ١٨٨٦م.
٠٠٧٥ -٥١١٣٤٥	ديوان خديوي ٢٢٩، صورة مكاتبة من الديوان التركي الخديوي إلى مجلس النظار بشأن الحجاج العائدين بطريق السكة الحديدية الحجازية، بتاريخ ٧ يناير ١٩٠٩م.

٠٠٧٥ -٠٢٦٩٧١	محفظة رقم ٥٣٣، موضوع مكاتبة من نا□ر الداخلية لمجلس النظار□إشعاره□وصول المحمل وخط سيره حتى وصوله إلى القلعة،□تاريخ ٢٠ صفر ١٣٠٠هـ/ ١٣ ديسمبر ١٨٨٢م.
٠٠٧٥ -٠١٣١٩٦	الرحلات الخديوية، محفظة رقم ٢٥١، مجموعة ، خاص□سفر الجناب العالي إلى .M.SAرقم ٧٨ الحجاز،□تاريخ ١٧ يناير ١٩١٠م إلى ٢٠ يناير ١٩١٠م.
٠٠٧٥ -٠٠٧٥٥٠	داخلية الحج والمحمل، محفظة رقم ١٨/أ مجموعة ٢٥ داخلية، موضوع تقارير عن الحج ١٩٠٤- ١٩٢٣م.
٠٠٧٥ -٠١٢٠١٩	دیوا□ خديوي، مكاتبة من ديوا□ تركي خديوي إلى مجلس النظار□شأ□ الإحسا□ رسم إعانة السكة الحديد الحجازية على المنعم عليهم□الرتب والنياشين،□تاريخ ٢٤ يناير ١٩٠٥.
٠٠٧٥ -٠٢٣٦٦٥	مالية، ملف بعنوان منشور إلى عموم النظارات بعدم تداخل أحد من موظفي وعمال الحكومة في اكتتاب سكة حديد الحجاز، بتاريخ ٣٠ ربيع أول ١٣٢١هـ/ ٢٦ يونيو ١٩٠٣م.
٠٠٧٥ -٠٠٧٥٤٣	داخلية (الحج والمحمل)، شروط خاصة □الحجاج،□تاريخ ١٨٩٨/٤/٢م.
٠٠٧٥ -٠٠٢٣٩٧	رقم المحفظة ٢/٨/ج، مجموعة رقم ٧٠ داخلية، موضوع مذكرة اللجنة المالية□الموافقة على فتح اعتماد خصوصي لمجلس الصحة البحرية والكورنتينات لإصلاح خط السكة الحديد المقام على رصيف محجر سواكن لنقل أمتعة الحجاج وخلافها،□تاريخ ١٩١٣/١٢/١م.
٠٠٧٥ -٠١٥٨٨١	مجموعة ٢٥ داخلية، مجلس شورى القوانين، موضوع مكاتبة مجلس شورى القوانين،□تاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٠٢م.
٠٠٧٥ -٠١٦٢٢٩	وثيقة□عنوا□ من رئاسة مجلس النظار إلى نظارة الداخلية،□تاريخ ١٥ مار□ ١٩٠٢م.
٠٠٧٥ -٠٢٧٧١٨	traduction d`une lettre رقم ٥٤١، وثيقة□عنوا□: adresse`e a` S.E le pre`sident du conseil des Ministres par S.E. le pre`sident du conseil le`gislatif en date du 10 De`cember 1900

٠٠٧٥ -٠٠٧٥٣٤	داخلية الحج والمحمل، موضوع عدم الترخيص بالسفر للحجاز لمن لا يقدر على مصاريف الذهاب والعودة، بتاريخ يناير ١٨٩٠م.
٠٠٧٥ -٠٠١٣٥٢	الإجراءات القانونية والصحية التي يجب اتخاذها عند سفر الحجاج وعودتهم من الأراضي الحجازية، وثيقة بعنوان: Traduction d`une Lettre adresse`e a` son Excellence le pre`sident du consell des Ministres par son Excellence le pre`sident du conseil Le`gislatifi en date du 22 De`cembre 1902 N 41

٢- محافظ عابدين.

الكود الأرشيفي	عنوان السجل
٠٠٦٩ -٠١١٢٧١	محفظة رقم ٥٤٧، ملف ٤، منشور نمرة ٤، من وزارة الداخلية بشأن سفر الحجاج المصريين لأداء فريضة الحج، بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩١٩.
٠٠٦٩ -٠١١٢٦٧	ملف رقم ١٦، بعنوان إلتماس من إدريس المغربي إلى السلطان بطلب صدور الأمر بتسفيره إلى بلده الدار البيضاء بتاريخ ٥ يونية ١٩١٥م.
٠٠٦٩ -٠٠١١٧٣٨	محفظة رقم ٥٦١، ملف ٣، بعنوان إلتماس مقدم من محمد علي وأحمد علي إلى ولي النعم، بتاريخ ١٦ يونية ١٩٠٧م.
٠٠٦٩ -٠١١٢٦٠	وثيقة بعنوان تلغراف ديوان خديوي لسعادة رئيس الديوان الخديوي بتاريخ ١٩٠٩م.
٠٠٦٩ -٠١١٢٨٢	محفظة رقم ٥٤٧، تقرير عام عن الحج.
٠٠٦٩ – ٠١١٢٥٧	ملف رقم ٦، بعنوان تقرير تفصيلي عن خط سير المحمل الشريف وما صادف من الحوادث أثناء السفر عند قيامه من القاهرة وحتى عودته إليها ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م

٠٠٦٩ -٠١١٢٧٠	محفظة ٥٤٧، ملف ٣، بعنوان التماسات مقدمة من بعض الأشخاص إلى السلطان حسين كامل باشا بطلب المساعدة لتأدية فريضة الحج ١٩١٨م، بتاريخ ١٤ مايو – ١٧ أغسطس ١٩١٨م.
٠٠٦٩ -٠١١٢٥٩	بعنوان التماسات مقدمة من بعض الأشخاص إلى الخديو بشأن طلب المساعدة للذهاب إلى الأراضي الحجازية لتأدية فريضة الحج من مارس ١٩٠٧ إلى ٢٣ ديسمبر ١٩٠٧م.
٠٠٦٩ -٠٢٦٥٦٠٨	موضوع عرض خطاب رئيس القطاع الهندسي بمصلحة السكك الحديدية والتلغراف وميناء الإسكندرية الخاص بتجديد خط سكك حديد السويس على ديوان الخديوي، بتاريخ ٢٠ اكتوبر ١٨٨٠م.

٣- ديوان الداخلية.

الكود الأرشيفي	عنوان السجل
٢٠٠١ -٠١٩٣٨٠	ملف رقم ١٦٨٧، مجموعة الداخلية (مجلس الصحة والبحرية والكورنتينة) موضوع خاص بالجدول المشتمل على أعداد وجنسيات الحجاج الذين غادروا السويس إلى جدة، بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٨٨٢م.
٢٠٠١ -٠١٥٩٠٠	ملف رقم ٧٠٢، بخصوص اجراءات نقل الحجاج الفترة من ٢٧ مايو ١٨٨٠م – ٢٧ يونيو ١٨٨٠م، وثيقة بعنوان: Intendance Ge`ne`rale Sanitaire d`Egypte Pelerinace de L`anne`e 1879.
٢٠٠١ -٠١٩٩٤٨	ملف ٤٦٩٩، موضوع بخصوص إرسال مذكرة وكالة فرنسا المشيرة إلى الفوضى المرتكبة من المتعهد المكلف بابحار ونزول الحجاج، بتاريخ ٥ يوليو ١٨٨٨م- ٢٥ يوليو ١٨٨٨م.

٤- ديوان المالية.

الكود الأرشيفي	عنوان السجل
٠٤٦٤٤٩- ٣٠٠٣	قلم شبارسات□ما□اية، موضوع أوامر عا□اية□لخديوي إسماعيل□اشا□اصة □معاملة□احجاج□افقراء الأجانب، وثيقة □عنوان صورة الإفادة□اواردة من معاون□اسنية□محافظ الإسكندرية □تاريخ ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦□.
٦٩٤١٨- ٣٠٠٣	ملف رقم ١٨٤- ٩١/ ٧، وزارة□ما□اية قلم□امحفو□ات، موضوع□يع تذاكر □احجاج□واسطة□عض مو□في □احكومة نظير منحهم مكافآت.
٠٣٤١٠٤- ٣٠٠٣	دفتر□اصادر من سعادة أمير□احج، □تاريخ ١٤ مايو ١٨٩٢□.

٥- وزارة الخارجية.

الكود الأرشيفي	عنوان السجل
٠٢٧١٠٢- ٠٠٧٨	مجموعة رقم ١٣/١/ ١٣٧، موضوع □امعايير والأسا□يب□اخاصة□نقل□احجاج الأجانب عن طريق مصر،□اجزء الأول، □تاريخ ٥/٨/ ١٩٢٠.

٦- مجلس الوزراء.

الكود الأرشيفي	عنوان السجل
٠٣٥٧٣٥- ٠٠٨١	□عنوان منح تخفيض من أثمان تذاكر□اسفر على□طوط□اسكك□احديدية□جميع □احجاج.

٧ـ محافظ الأبحاث: ـ محفظة رقم ٢٦ أبحاث السودان.

ب- الوثائق المودعة بدار المحفوظات العمومية وهى:

ـ دفتر نمرة (١٤) لقيد حجاج مديرية المنيا،ج٢، محافظة السويس طلعة ١٣٢٥رجعة ١٣٢٦هـ/ ، سجل رقم ١٥٥٦، عين ١٥، مخزن ٤٧.

. سجل قيد حجاج مديرية جرجا دفتر نمرة١٤، طلعة ١٣٢٤هـ رجعة ١٣٢٥هـ، سجل رقم ٢٨، عين ١٥، مخزن ٤٧

ـ سجل لقيد الحجاج المصرين المسافرين برفقة المحمل الشريف في يوم ٢٥ ذي لبقعدة ١٣٢٥هـ/ ١٢ سبتمبر ١٩١٧م، سجل رقم ٢٥١٩، عين ٢٦، مخزن ٤٧.

. سجل لقيد حجاج محافظة السويس جزء أول، طلعة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، سجل رقم ١٥٦٦، عين ٣٥، مخزن ٤٧.

ثانياً: كتب الرحلات:

ـ آرثر جون وافل (الحاج علي الزنجباري): رحلة الحاج المعاصر إلى مكة عام ١٩٠٨م، ترجمة ريم بوزين الدين، تعليق ومراجعة أحمد أبيش، ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠١١م.

ـ رتشارد ن. بيرتون: رحلة بيرتون إلى مصر وبلاد الحجاز، ج١، ترجمة عبد الرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

ـ شارل ديدييه: رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م، ترجمة محمد خيري البقاعي، دار الفيصل الثقافية، الرياض، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

– محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر، مطبعة الجمالية ، مصر ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

ثالثاً: الدوريات:

الوقائع المصرية:أعداد:.

. نمرة الجريدة ١٢١، السنة الثالثة والسبعون، بتاريخ الأربعاء ٣٠ رجب ١٣٢١هـ/ ٢١ أكتوبر ١٩٠٣م.

. نمرة الجريدة ٤٠، السنة الرابعة والسبعون، بتاريخ الأربعاء ٢٠ محرم ١٣٢٢هـ/ الموافق ٦ إبريل ١٩٠٤م.

ـ نمرة الجريدة ١٢٢، السنة السابعة والسبعون، بتاريخ السبت ١٢ رمضان ١٣٢٥هـ/ ١٩ أكتوبر ١٩٠٧م.

رابعاً: المراجع:

. أمين سامي باشا: تقويم النيل، المجلد الأول، ج٣، ط٢، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٣م.

ـ تفيدة سمير محمود سري: سجلات قيد الحجاج المصريين دراسة أرشيفية وثائقية ١٩٠٥– ١٩١٣م، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، وثائق ومكتبات، كلية الآداب جامعة القاهرة، ٢٠١٣م.

ـ خلف عبد العظيم الميري: تاريخ البحرية التجارية المصرية ١٨٥٤– ١٨٧٩م، تقديم يونان لبيب رزق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م.

ـ السلطان عبد الحميد: مذكرات السلطان عبد الحميد، ط٣، تقديم وترجمة محمد حرب، دار القلم، دمشق، ١٩٩١م.

. فيليب بن يوسف جلاد: قامرس الإدارة والقضاء، مج ٢، ط٣، تقديم محمد صابر عرب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٣٥٧.

ـ محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، دار الأندلس الخضراء، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٠م.

ـ محمد عمر بشير: تاريخ الحركة الوطنية بالسودان ١٩٠٠– ١٩٦٩، ترجمة هنري رياض، وليم رياض، الجنيد علي عمر، مراجعة نور الدين سامي، الدار السودانية للكتب، السودان، ١٩٨٠م.

. محمد فؤاد شكري: مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١م.

ـ نزار علوان عبد الله: سكة حديد الحجاز وأشراف مكة المكرمة١٩٠٠– ١٩١٤م رؤية تاريخية لمراحل البناء والموقف المعارض، قسم التاريخ، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، بغداد، دن.

طريق الحج لحجاج جزر القمر وآثاره الحضارية

د/ عبدالرؤوف عبده عمر
عميد كلية الإمام الشافعي للعلوم الإسلامية والعربية
جامعة جزرالقمر

خطة البحث:

عنوان البحث: طريق الحج لحجاج جزرالقمر وآثاره الحضارية.

وهذا البحث يشتمل على فصلين.

الفصل الأول: جزر القمر

يشمل ثلاثة مباحث

المبحث الأول: موقع جزرالقمر والحدود الجغرافية.

المبحث الثاني: دخول الاسلام في جزرالقمر.

المبحث الثالث: علاقة جزر القمر بالعالم الإسلامي

الفصل الثاني: الطرق التي سلكها حجاج جزر القمر لأداء فريضة الحج عبر التاريخ

وهذا الفصل يشمل أربعة مباحث.

المبحث الأول: الطريق من الجزر مباشرة عبر الموانئ اليمنية.

البحث الثاني: الطريق من الجزر عبر زنجبار ودار السلام.

البحث الثالث: التأثير الثقافي والتجاري وتبادل المنافع لحجاج جزر القمر .

البحث الرابع: مساهمة حجاج وعلماء جزر القمر في نشر تعاليم الإسلام في جزر القمر.

الفصل الأول

يشتمل على ثلاثة مباحث

المبحث الأول: موقع جزر القمر والحدود الجغرافيا.

تقع جمهورية جزر القمر المتحدة على ساحل شرقي أفريقيا، وعلى مدخل قناة موزمبيق في المحيط الهندى، وتكون أرخبيلاً مؤلفاً من تسع عشرة جزيرة تمتد بين

خطى عرض ١١ درجة ١٣ درجة جنوبى خط الاستواء وتنحصر بين خطى طول ٣٤ درجة ٥٤ درجة شرقاً تقريباً.

ومن جانب آخر تبعد هذه الجزر عن ساحل شرقي أفريقيا وكذلك عن جزيرة مدغشقر بمسافة ٢٧٠ درجة إلى ٣٠٠ كم تقريبا، وهذه المنطقة التي تقع عليها جزر القمر بمضيق موزمبيق تعتبر منطقة ذات أهمية إستراتجية بحرية في هذا الجزء من المحيط الهندي، إذ بها تمر السفن القادمة من الخليج العربي أو إلى البحر الأحمر أو من أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند.[٥٨]

ومن جانب آخر جزر القمر عبارة عن مجموعة أربع جزر رئيسية، وهي: انجازيجا وتعرف أيضا باسم جزر القمر الكبرى باعتبارها أكبر هذه الجزر، ومساحتها (١٠٢٥) كم وأهم مدنها (موروني) عاصمة البلاد حالياً و (إكونى) عاصمة الجزيرة قديماً و(نتسجين) و (هاهيا) وبها مطار سيد إبراهيم بن سلطان سيد علي الدولي و (مطا مهول) وشيزان و (مبين) و(كومبان) و (متسغجو) و (فومبوني) و (متسوجي) ثم جزيرة (موهيلي) وتعرف أيضا باسم (موالى) أو (مهيلى) وهي أصغر هذه الجزر. وتبلغ مساحتها (١١١كم) وأهم مدنها (فمبوني) ثم جزيرة (هنزواني) والتي تسمى أيضا (نزوان) أو (انجوانى) وتقدر مساحتها بحوالى ٤٢٤كم وأهم مدنها (متسامود) وبها ميناء القمر الدولي، وأخيرا جزيرة (مايوت) وتعرف أيضاً باسم (ماوري) ومساحتها(٣٧٤ كم) وأهم مدنها (دزاودزي) وهي العاصمة القديمة لجزر القمر عقب وقوع البلاد تحت الاستعمار الفرنسي. وبذلك تصبح المساحة الكلية للجزر الأربع هذه حوالي (١٩٣٤) كيلو متراً مربعاً، وهي في نفس الوقت بمثابة أرخبيل متقارب بعضه من بعض.

لقد جاءت تسمية هذه الجزر، بجزر القمر، لأنها ترتفع عن سطح الماء بحوالي (٥٥٠) قدماً، وتبدو للمسافر إليها بل كقطعة من الأرض ثبتت في العالم العلوي، وذلك من شدة علوها عن سطح الماء، ولذلك كما يقول هؤلاء الكتاب هو السبب في شدة لمعان القمر الأصلي على هذه الجزر، وعلى هذا الأساس جاءت التسمية بجزر القمر (بفتح القاف والميم).

المبحث الثاني: دخول الإسلام في جزر القمر

منذ القرن السابع الميلادي دخل الإسلام إلى جزر القمر.[٥٨] وأصبح هو الدين الوحيد الذي يدين به جميع القمريين منذ ذلك التاريخ، وبذلك تصبح جزر القمر من الدول القليلة التي يعتنق جميع أبنائها الإسلام.

وقصة دخول الإسلام إلى هذه البلاد نجدها منتشرة على طول الجزر الأربع وعلى أفواه الناس، وتكاد تكون أسطورة شعبية وهي توجد في المخطوطات[٥٨] التي استعان بها الباحث كذلك توجد في بعض المراجع الحديثة، وتذهب إلى تأكيد حدوث القصة.

وترجع القصة إلى أن التوراة كانت تقرأ في جزر القمر قبل ظهور الإسلام، وهذا يعنى الديانة اليهودية عرفت طريقها إلى هذه الجزر قبل الإسلام،[٥٨] وأن اليهود دخلوا إلى جزر القمر بعد خراب بيت المقدس على يد بختنصر.

ولكن يبدو أنها لم تنتشر إلا في حدود ضيقة ربما وسط الأمراء والملوك، إذ تذكر الروايات أن اليهود الذين كانوا يقيمون بالقمر، اقتربوا من بعض ملوك وأمراء الجزر وعلموهم التوراة. وذكروا لهم أن نبياً يظهر في الجزيرة العربية وقدحان موعد ظهوره.

وتذكر روايات أخرى أن ملوك وأمراء القمر كانوا قد علموا خبر ظهور النبي العربي محمد ﷺ وأنهم قرروا إرسال بعثة من أمرائهم إلى الجزيرة العربية لمعرفة حقيقة الأمر.

وتقرر بعث أمير منطقة (بودي) وأمير منطقة (دومبا).

وفي عهد الخلافة الراشدة خرجت البعثة القمرية برئاسة أمير منطقة (بودي) المعروف باسم (بيجاميهاسي بن فسمع) والمقلب بـ(مص مينزا) وأمير منطقة (دومبا) واسمه (فبيجا مها مبي) إلى الحجاز.

وعند ما وصلوا إلى جدة بمرا كبهم الشراعية وجدوا النبأ بوفاة النبي ﷺ وتقول الراويات هنا أن أمير (دمبا) قرر الرجوع وقال: لقد خرجنا للقاء النبي ﷺ وها هو قد مات. ولكن أمير (بودي) صمم أنه يجب أن يرى من رأوه[٥٨] فواصل السفر وتقول مصادر أخرى أنها واصلا رحلتهما حتى بلغا المدينة[٥٨] ويبدوا أن أمير (بودي) استطاع إقناع صاحبه (الدومبي) أن يعدل عن رايه حتى يشاهد الرجال الذين خلفهم النبي صلى الله عليه وسلم، وواصلت البعثة القمرية رحلتها حتى بلغت المدينة المنورة. وتقول

الروايات: أن ذلك كان في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي عنه وتقول أخرى إنه كان في عهد الخليفة ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وبعد وصول رجال البعثة إلى المدينة أعلنوا إسلامهم ومكثوا بالمدينة المنورة ردحاً من الزمن، تعلموا من الصحابة القرآن الكريم وقواعد الدين وتفقهوا، ثم رأوا ضرورة العودة إلى بلادهم لنشر الإسلام.

وتذهب الروايات إلى أنهم عندما عزموا على الرحيل أرسل معهم الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ابناً له، تقول الروايات أن اسمه محمد بن عثمان بن عفان ليعمل مع هؤلاء الرجال على نشر الإسلام في تلك البلاد.

ورجعت السفارة القمرية قبل قيام الفتنة الكبرى التي أودت بحياة الخليفة الشهيد ذي النورين رضي الله عنه وفي صحبتهم ذلك القرشي إلى جزر القمر، ونزلت البعثة بعد عود تها إلى الجزر في بلدة(تساوين) التي كانت حاضرة إمارة (بودي) وأسسوا فيها مسجداً، ثم ذهبوا إلى(بنداماجي) حاضرة إمارة (دومبا) وأسسوا فيها مسجد آخر وبدأ هؤلاء الدعاة في نشر الإسلام حتى أسلمت القمر الكبرى.[٥٨] ثم خرجوا بالإسلام إلى أخواتها (هنزوان) و (موهيلي) و(مايوت) وإلى أطراف جزيرة مدغشقر الشمالية.

المبحث الثالث: علاقة جزر القمر بالعالم الإسلامي

قامت في جنوب الجزيرة العربية دولة معين (١٣٠٠ . ٦٣٠ ق.م) ودولة سبأ (٨٠٠ .١١٥ ق.م) ودولة حمير الأولى (١١٥. إلى ٣٠٠م) ودولة حمير الثانية (٣٠٠.٥٢٥م) أسهمت وساعدت هذه الدول اليمنية في بناء الحضارة البشرية، ونقلها إلى الأمم والشعوب الأخرى.[٥٨]

وكانت تجارتهم قد ازدهرت في عهد (سبأ وحمير) وبدأت سفنهم التجارية تصل إلى شرق أفريقيا عبر البحر الأحمر، ودخلوا الحبشة ومصر والسودان، وكذلك انحرفت سفنهم التجارية جنوبا بالرياح الموسمية الشمالية الشرقية إلى جزيرة ساحل شرقي أفريقيا في المحيط الهندي، فدخلوا زنجبار وجزر القمر وغيرها من جزر الساحل، وتاجر اليمنيون مع أهل هذه المنطقة في الذهب والعاج والأشجار الطيبة وغير ذلك[٥٨].

وظلت السفن العربية اليمنية تختلف على شرق إفريقيا حتى بدأت مجموعات من هؤلاء العرب الاستقرار بجزر الساحل، وبدأوا يخلطون بالشعب الإفريقية التي سبقتهم إلى هذه الجزر.

وتظهر الآثار التي حلفوها في جزر القمر حتى اليوم، في المظاهر الاجتماعية وفنون الزراعة وشق الترع، واستعمال الأحجار عند البناء فضلاً عن الآثار اللغوية المتمثلة في بقايا الكلمات التي كانت تستخدم في اليمن القديم.[٥٨]

ثم جاء الإسلام فكانت الهجرات العربية الكبرى إلى العالم وهي الهجرة للدعوة التي بدأت منذ القرن السابع الميلادي حاملة الرسالة الإسلامية، إلى الشعوب والأمم كافة، وكانت منطقة شرقي أفريقيا من المناطق التي بدأت تستقبل هؤلاء العرب الدعاة منذ القرن السابع الميلادي، ولم تقف الهجرات العربية منذ ذلك التاريخ ألا بعد القضاء على النفوذ العربي في شرقي أفريقيا وسقوط البلاد العربية والإفريقية تحت الامبريالية الأوربية في القرن التاسع عشر الميلادي.

وفي عهد الإسلام دخل العرب إلى جزر القمر دعاة ومقيمين واختلطوا بأصحاب البلاد منذ القرن السابع الميلادي.

وتظهر آثارهم الحضارية والثقافية في أسلمه الجزر القمرية الأربعة ، وتحمس الشعب القمري للإسلام وكتابة لغتهم القومية بالحرف العربي. وتقول الروايات أن أول عربي دخل إلى هذه الجزر القمرية في العهد الإسلامي كان أحد أبناء الصحابة رضي الله عنهم وهو محمد بن عثمان بن عفان.

الفصل الثاني

الطرق التي سلكها حجاج جزر القمر لأداء فريضة الحج عبر التاريخ

وهذا الفصل يشتمل على أربعة مباحث.

المبحث الأول: الطريق من الجزر مباشرة عبر الموانئ اليمنية:

ثبت تاريخيا أن الذين اكتشفوا جزر القمر هم العرب من الخليج العربي، من المملكة العربية السعودية واليمنية وعمان والإمارات العربية المتحدة، وأن الجزر هي أربع جزر تقع في المحيط الهندي، فحجاج جزر القمر في ذاك الوقت ليست لهم

طريق إلى الحج إلا عبر السفن والبواخر، فهم يركبون البواخر من جزر القمر إلى الخليج العربي ويصلون إلى اليمن أو إلى عمان أو إلى الإمارات العربية المتحدة ثم عن طريق الجمال أو الخيل أو الحمير يركبون إلى مكة والمدينة، فمن أجل ذلك كان قديما حجاج جزر القمر يتعرضون إلى مشكلتين المشكلة الأولى مشكلة ركوب البواخر والسفن التي لم تكن معدة وميسرة لركوب الحجاج فبعضهم يموتون في البحر إما من الغرق في البحر إذا صادفوا الرياح والعواصف والأمواج في البحر .

المشكلة الثانية: مشكلة الأمن حيث يعترضهم قطاع الطرق إما في البحر وإما في البر بين الموانئ ومكة المكرمة أو المدينة المنورة فيقتلون ولم يجد أهلهم خبرا بموتهم فمن ذلك نجد أن حجاج الجزر لهم شروط أخرى اجتماعية غير الواردة في قوله تعالى: " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا" حيث فسر المفسرون قوله تعالى: "من استطاع إليه سبيلا" الزاد والراحلة فزادوا شروطاً أخرى وهي أولا: أن يتزوج الحاج ثم ينجب ثم يزوج ابنه أو بنته، إذا مات الحاج فقد ترك أولاداً وأحفاداً لأنهم كانوا يعتقدون أن من سافر إلى الحج هذا السفر هو أجله يسافر ويموت، فقالوا لا يجوز أن يموت الشاب أو الصغير.

ثانيا: الدعاء: حجاج الجزر قبل السفر يجتمع الناس للدعاء لهؤلاء الحجاج وهذا الدعاء عبارة عن قراء ة سورة (يس) أو قراءة مولد النبي ﷺ من المولد البرزنجي أو مولد نسميه مولد (نون).

أو دعاء قضاء الحاجة وهذه الدعاء معروف في جزر القمر، ويذبحون الأبكار أو الغنم . وهذه الطقوسات موجودة في بعض المدن حتى الآن ولو بصورة قليلة. مما يؤدى الحاج أن يتوجه إلى الساحر أو الكاهن ليسأله إذا كان السفر إلى الحج فيه خير أي يعود أو يموت هناك ولكن هذه المعتقدات لم توجد الآن من أجل العلماء والدعاة يصححون هذه العقيدة ثانياً، الآن الطريق ميسر وليس من يحج يموت الآن مائه في المائة أو تسع وتسعين يرجعون من الحج سالمين آمنين من القتل والنهب.

المبحث الثاني: الطريق من الجزر عبر زنجبار ودار السلام

كانت زنجبار هي العاصمة التجارية الأولى للدول العربية، في شرق أفريقيا فسكان الجزر كانوا يسافرون إلى زنجبار ودار السلام لطلب العلم الشرعي والتجارة فأصبحت زنجبار مأوى لسكان الجزر حتى أصبحت زنجبار مثل الجزر لدى المواطن القمري فعاشوا هناك حتى أصبحت دولة جزر القمر وزنجبار دولة واحدة يتحكم فيها سلطان واحد من بني سعيد حتى أن احد من ملوك بني سعيد تزوج ملكة جزيرة مهيل اسمها (جوب فاطمة) وعاش معها بين زنجبار ودار السلام وجزر القمر. فحدث من أجل المصاهرة تبادل الحكم بين حكام جزر القمر وسلاطين بني سعيد في زنجبار ودار السلام، فحجاج جزر القمر ينطلقون من زنجبار ودار السلام كأنهم ينطلقون في الجزر إلى مكة المكرمة لآ داء فريضة الحج ويعودن إلى زنجبار، فمن أجل ذلك نجد معظم علماء جزر القمر عاشوا فيها بعد أن درسوا، أصبحوا علماء ينشرون الدين في شرق أفريقا كأمثال: الشيخ العالم الجليل برهان مكيل الذي يعتبر أول مؤرخ في شرق أفريقا والحبيب عمر بن أحمد بن أبي بكر بن سميط. والدكتور عمر عبد الله المعروف بـ (مونى بركة) والمفتي السابق المرحوم السيد محمد عبد الرحمن ومفتى الجمهورية السيد طاهر بن أحمد مولانا جمل الليل أول خريج قمري في الأزهر الشريف والشيخ السيد أبوبكر بن سيد عبدالله آل جمل الليل أول خريج من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والمرحوم السيد محمد شريف أحمد جمل الليل أول خريج في معهد بخت الرضا في جمهورية السودان.

المبحث الثالث: التأثير الثقافي والتجاري وتبادل المنافع لحجاج جزر القمر.

إن حجاج جزر القمر كغيرهم من الحجاج يتأثرون من الناحية الثقافية حيث يتلقون بإخوانهم المسلمين في أنحاء العالم باختلاف ألوانهم وألسنتهم وحياتهم فيجدون أنفسهم كأنهم زاروا العالم ويتعرفون بإخوانهم المسلمين وربما يجدون المساعدة من الحجاج أو يساعدون الحجاج لرفع البضائع أو شراء الهدايا. ويشاركون مع إخوانهم في عرفات ويتابعون الخطبة التي تقوم أعمال السنة وما يحدث للمسلمين في العالم.

أما التبادل التجاري والمنافع لحجاج جزر القمر فهم كغيرهم من حجاج العالم يما رسون التجارة والمنافع بينهم وكذلك بينهم وبين أقاربهم وأهل دولتهم، لأنه لا يأس للحاج أن يتاجر ويؤاجر ويكتسب وهو يؤدي أعمال الحج والعمرة.

قال ابن عباس: " إن الناس في أول الحج[٥٨] كانوا يتبايعون بمنى وعرفة، وسوق ذى المجاز[٥٨] ومواسم الحج فخافوا البيع وهم حرم، فأنزل الله تعالى: "ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم"[٥٨] في موسم الحج رواه البخاري ومسلم والنسائي وعن ابن عباس أيضا في قوله تعالى: " ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم".قال: " كانوا لا يتجرون بمنى" فأمروا أن يتجروا إذا أفاضوا من "عرفات" رواه أبوداود.

وعن أبي أمامة التيمى: أنه قال لابن عمر: إني رجل أكري[٥٨] في هذا الوجه وإن ناسا يقولون لي: إنه ليس لك حج قال ابن عمر: أليس تحرم وتلبي، وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات، وترمى الجمار، قال: قلت: بلى، قال: فإن لك حجاً، جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن مثل ماسألتني، فسكت عنه حتى نزلت هذه الآية: " ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم" فأرسل إليه وقرأ عليه هذه الآية، وقال: " ذلك حج" رواه أبوداود وسعيد بن منصور.

وقال الحافظ المنذرى أبو أمامة لا يعرف اسمه وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رجلا سأله، فقال أؤجر نفس من هؤلاء القوم فأنسك معهم المناسك، إلى أجل؟ قال ابن عباس: نعم" أولئك لهم نصيب مما كسبوا، والله سريع الحساب" رواه البيهقي والدار قطني.

المبحث الرابع: مساهمة حجاج وعلماء جزر القمر في نشر الدين وتعاليم الإسلام في الجزر

قد سبق أن ذكرنا أن ملوك وأمراء القمر كانوا قد علموا خبر ظهور النبي العربي محمد ﷺ وأنهم قرروا إرسال بعثة من أمرائهم إلى الجزيرة العربية لمعرفة حقيقة الأمر وتقرر بعث أمير منطقه (بودي) وأمير منطقة (دومبا).

وفي عهد الخلافة الراشدة خرجت البعثة القمرية برئاسة أمير بودي المعروف باسم (بيجا ميهاسي بن فسمع) والملقب بـ (مص مَينز) وأمير منطقة (دومبا) واسمه (فبيجامهامبي) إلى الحجاز.

وعند ما وصلوا إلى جدة بمراكبهم الشرعية وجدوا النباء بوفاة النبي ﷺ ولكن واصلا رحلتهما حتى بلغا المدينة وان ذلك كان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي رواية أخرى كان ذلك في عهد ذي النورين عثمان بن عفان وبعد وصول رجال البعثة إلى المدينة أعلنوا إسلامهم ومكثوا بالمدينة وتعلموا من الصحابة القرآن الكريم وقواعد الدين وتفقهوا، ثم رأوا ضرورة العودة إلى بلادهم لنشر الإسلام.

وأنهم عندما عزموا على الرحيل أرسل معهم الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ابناً له اسمه محمد ليعمل مع هؤلاء الرجال على نشر الإسلام في الأرخبيل.

ورجعت السفارة القمرية قبل قيام الفتنة الكبرى ونزلت البعثة بعد عودتها إلى الجزر في بلدة(نساوين) التي كانت عاصمة إمارة (بودي) وأسسوا فيها مسجداً ثم ذهبوا إلى (بنداماجي) حاضرة إمارة (دومبا) وأسسوا فيها مسجداً آخر.

وبدأ هؤلاء الدعاة في نشر الإسلام حتى أسلمت جزيرة القمر الكبرى (انجازيجا) ثم خرجوا بالإسلام إلى أخواتها (هنزواني) و (موهيلي) و (مايوت) وإلى شرق أفريقيا بين زنجبار و (دار السلام) وممبسا في (كينيا) ومجنغاي في مدغشقر).

وخلاصة ما أقول: إن مساهمة ودور حجاج وعلماء جزر القمر في نشر الإسلام وتعليمه واللغة العربية دور محوري قديما وحديثا، لأنهم بعدما رجعوا من المدينة ترعرعوا ودرسوا العلوم الشرعية وفنون آداب اللغة العربية على أيد هؤلاء الصحابة والعرب المهاجرين من الدعاة والعلماء استلموا الراية من أيدهم، وأدلوا بدلوهم وكانوا في الطليعة دائما في حفظ الدين، والقائمين على إشاعته وتعميمه بين الناس، وتحملوا تجاه ذلك كل المسؤوليات كاملة، وقادوا مسيرة التوعية والصمود بالحكمة والموعظة الحسنة.

توثيق أعظم الهجرات على طريق الحج الأفريقي: مسلسل وسلسلة من الأفلام الوثائقية – الإجابة على طريق الحج الأفريقي

أ. هادي الصادق عبدالجبار
المدير العام لشركة الإجابة
للإنتاج الفني والاستثمار المحدودة

ديباجة:

بعد سقوط الأندلس فرّ المسلمون بدينهم إلى شمال أفريقيا ، اختلطوا بالسكان في منطقة المغرب العربي والصحراء ، ثم اتجهوا في مسارات برية إلى غرب أفريقيا في حركة ترحال وتعايش واستقرار على امتداد طريق الحج الأفريقي الذي يبدأ من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً عبوراً الى الحجاز في مسافة ٣٢٠٠كم مروراً بعدد من الدول (المغرب، موريتانيا، السنغال، النيجر، نيجيريا، مالي، تشاد، السودان، السعودية).

مقدمة :

منذ القرن الحادي عشر الميلادي الذي يوافق السادس من الهجرة نشأت عدد من الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا والاستوائية وهي مملكة بلاد التكرور ومملكة غانا ومملكة مالي ودويلات الهوسا وكانم وبرنو وهجرات الفولاني من فوتا جالون وفوتاتورالي بحيرة تشاد ومملكة وداي في جنوب غرب السودان.

كانت هذه الممالك تذخر بعدد كبير من القبائل والشعوب المختلفة والمتداخلة في عاداتها وتقالديها تآلفوا وتعايشوا بفضل التداخل والتزاوج فيما بينهم ، ومن ضمن هذا القبائل قبائل عربية وزنجية ومجموعات مسيحية و مسلمة من العرب والبربر الذين اشتهروا بالذكاء والشجاعة وتمسكهم بالإسلام، ويتكلمون اللغة الطوارقية التي تأثرت باللغة العربية. اتجهت هذه المجموعات جنوب الصحراء بسبب الخلافات السياسية، وبقصد التجارة والإغارة على بلاد التكرور والسواحل الممتدة على الضفة اليمنى لنهر

السنغال والضفة اليسري لنهر النيجر حتي بلاد البرنو وتمبكتو وكان بعضهم يعملون بالتجارة والصدف والذهب والنحاس وغيرها.

مع سقوط دولة غرناطة في الأندلس كاخر معقل للعرب والمسلمين عام ١٤٩٢م بدأت تدفقات جديدة من العرب المستعربة المسلمين إلى شمال أفريقيا، وسلكت هذه القبائل والمجموعات الوافدة إلى غرب أفريقيا عدة طرق من تونس وليبيا إلى منطقة بحيرة تشاد ومن تونس إلى بلاد الهوسا في النجير وشمال نيجريا ومن الجزائر الي أواسط نهر النيجر ومن المغرب إلى أعالي نهر النيجر وحوض نهر السنغال، وكانت الإبل والخيول والحمير وسيلة النقل والترحال من شمال وغرب أفريقيا وكانت موريتانيا منطقة التلاقي ومركز التقاء القوافل التجارية، وتسكن في موريتانيا قبائل الشناقيط ومعناها بلغة البربر (عيون الخيل) كما توجد في جنوب موريتانيا جماعات من التروز المتأثرين بالروم وهم التراوزة والداكنهة ومجموعة من قبائل البربر ومعظم هذه القبائل مسلمة وكان لها الدور الكبير في الانصهار الاجتماعي في المنطقة.

لم تقتصر أسباب انتشار الثقافة الإسلامية والعربية على حركة التداخل التجارية والغارات التي كان يقوم بها البعض من البربر والمغاربة فقط ، بل هناك رحلة الحج البرية التي يقوم بها الحاج للتعلق بأستار الكعبة يبتغي غفران الذنوب ومقاصد أخرى متباينة للمهاجرين على امتداد طريق الحج تتعلق بالخلاف السياسي العقائدي والاستزادة من العلم و الجهاد في سبيل الله، وفي النهاية ينتهي بهم المطاف إلى الحج.

فقد صدرت فتاوي من علماء بالأندلس وعلماء من تمبكتو وسكتو بانتفاء شرط الاستطاعة لحجاج مسلمي غرب أفريقيا ذلك لطول مسافة الطريق والظروف القاسية الصعبة التي تواجههم والمخاطر التي قد تؤدي بهم إلى التهلكة فقد أوردها أحد الحجاج الشيخ إبراهيم هارون في صوره دراميه ناطقة بقوله:-

(يعبر الحجيج في مسيراتهم وقوافلهم الصحاري ويخترقون الغابات الوعرة ويعبرون الوديان ويتيهون في السهول ويفترشون الرمل ويتوسدون الحجر، ويكابدون لفيح

الهجير وصقيع الشتاء ومخاطر المطر والسيول ويقاومون الوحوش و لدغات العقارب والأفاعي كل ذلك منذ أن كانت الهجرة إلى الحج) .

تبدأ رحلة الحاج بوداع الأهل وداعاً ألا عودة إلى الديار. وفي شكل جماعات وأفراد يأتون من جهات مختلفة ويتجمعون في مراكز محددة ويتحرك الحجاج في شكل قوافل على رأس كل قافلة أمير لديه خبرة ودارية ومتفقه في الدين، تعداد الفوج خمسون أو يزيدون يصل منه إلى مكة القليل لأداء فريضة الحج، أما البقية إما أكلهم السبع والحيوانات المفترسة في الغابات أو ماتوا بسبب المرض والجوع والعطش أو ضلوا الطريق أو أقتالهم قطاع الطرق أو تخلفوا في الطريق هكذا كانت الرحلة المقدسة حيث تلتقي فيها الأرواح بالأشباح.

تضم قوافل الحجاج المهاجرين العلماء وحفظة القرآن والتجار والمزارعين الذين يعرفون الأرض واستصلاحها ونجد فيها الأسرة كاملة : المرأة والأطفال والزوج والمرافقين لرب الأسرة والرفقة المأمونة، هؤلاء المهاجرون باعوا حياتهم لله لا يخافون من الموت، متسامحين متأدبين بآداب الحج في ترحالهم واستقرارهم، فقد تستغرق الرحلة عامين إلى عشرة أعوام أو الاستقرار في أي مكان بالطريق في أي دولة من الدول التي يمرون بها.

فقد درج بعض زعماء القبائل والسلاطين على إغراء العلماء وحفظة القرآن للاستفادة من علومهم لذلك منحوهم مراكز في بلاط السلطة، وملكوهم مساحات مقدرة من الأراضي الزراعية (حواكير) وتزوجوا من نساء هذه البلاد وتم ربطهم بالقبيلة وبالفعل كثيراً منهم استقروا على امتداد الطريق وشيدوا الخلاوي لتعليم الدين الإسلامي وعلومه وحفظ القرآن، ومنهم من عمل بالتجارة ومنهم من عمل بالزراعة وتصاهروا مع السكان الأصليين وأصبحوا مرتبطين بلحمة الدم وأبناؤهم أصبحوا جزءاً من سكان المناطق على طول طريق الحج الأفريقي وذابت العصبية والعنصرية، وأصبحت كل القبائل تتطلع جاهدة للتحدث باللغة العربية.

ترك هذا الحراك الاجتماعي منارات علمية سامقة كمدينة فاس في المغرب ومدينة تمبكتو في مالي ومدينة ساري في النيجر ومدينة سكتو في نيجيريا ومدينة سنار في

السودان وأصبح الرابط الإسلامي المذهب المالكي الذي انتشر في غرب أفريقيا وأصبح (المسيد) هو القلعة والمدرسة الدينية المتكاملة، وانتشرت قراءة القرآن برواية ورش، والخط المغربي والطرق الصوفية، وثقافة (الفكي) واللوح والريشة والمحايا الدوايا، هذا هو القاسم المشترك والمكون الأساسي للوجدان الإسلامي الشعبي المتغلغل في مجتمع القرى والأرياف. أما الفنون والأدب والموسيقى فهي المنابع الحقيقية التي تعبر عن الملمح الحقيقي للعادات والتقاليد والانسجام المتناغم في وحدة التنوع الثقافي وفي الأدوات والصناعات والأغراض المستخدمة في الحياة اليومية من المأكولات الشعبية وصناعة الفخار والأزياء ولبس العمامة والثوب النسائي والإيقاعات والآلات الموسيقية الأفريقية المتنوعة والأكسسوار وحفرة الدخان والوشم والشلوخ والحناء، وهذا قليل من القواسم المشتركة التي يتناقلها مسلمو غرب أفريقيا في ترحالهم واستقراهم على طريق الحج.

سقطت الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا على يد الاستعمار الانجليزي والفرنسي وتم نشر الدين المسيحي وعملوا على تغيير مسار طريق الحج إلى شمال إفريقيا وحرق القرى ومنعوا الحجاج من اداء فريضة الحج. وبرغم ما فعلوه لم يستطيعوا قطع الطريق والله متم نوره لو كره الكافرون، وسيظل الحج موحداً للأمم والشعوب طالما بيت الله قائماً ونداء الحج موجوداً في أجنة الأرحام.

ملخص المشروع

الفكرة

بدأت الفكرة بإنتاج فيلم وثائقي عن رحلة الحج من كانو/كنو إلى مكة، وموضوع الفكرة مستمد من الإرث الراسخ الذي خلفه الحراك الجماعي المتباين على طريق الحج والذي يمثل السودان فيه دور القلب إلى الجسد.

تطورت الفكرة من فيلم إلى مسلسل بعنوان (الإجابة) وإنتاج عدد من الأفلام الوثائقية ذلك بعدما قمت بتقديمها إلى عدد من الأساتذة المؤرخين والباحثين من أهل العلم والمعرفة وذلك لتوثيق أكبر قدر من المعلومات لأعظم الهجرات التي انتظمت العالم

الإسلامي والإفريقي من غرب إفريقيا إلى الحجاز وأثرها وتأثيرها على الخارطة الجغرافية.

وقد وجدت تلك الفكرة طريقها إلى التنفيذ منذ أن تم اعتمادها من مجموعة من المختصين بالإضافة إلى التشجيع الذي وجدته من قبل بعض الجهات ذات الصلة والمسئولين. وقد أنجزت العديد من الخطوات العملية والإيجابية في طريق تنفيذ هذا العمل الإعلامي الضخم .

الأهداف:

- بعث التراث الإسلامي الأفريقي وتقديمه برؤية فنية درامية جاذبة ومؤثرة.
- ترسيخ قيم ومفاهيم الإسلام وتنوع الثقافات المشتركة والعادات والتقاليد وانسجامها.
- إنتاج مسلسل وسلسلة من الأفلام الوثائقية يتم ترجمتها إلى لغات مختلفة توضح عظمة الإسلام
- ودوره في توحيد الشعوب (لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى) مذوبا العنصرية ، برغم الفوارق العرقية والجهوية واللغوية، في مشاعر موحدة وانصهار يتجلى فيه الميثاق الرباني في امتداد تشابكي مدهش ومتطور.

أهمية توثيق طريق الحج

تكمن أهمية توثيق طريق الحج الأفريقي بأنه مبادرة غير مسبوقة في مجال الصناعات الثقافية في العالم الإسلامي والأفريقي، وهذا التوثيق يتناول أطول الرحلات الإنسانية التي انتظمت العالم وكونت الوجدان الشعبي الإسلامي العربي والأفريقي وشكلت النسيج الاجتماعي والثقافي بما أنتجته هذه الرحلة من فرص للتمازج والتفاعل الإيجابي بين شعوب المنطقة كما يطرح التوثيق آفاقاً جديدة لحل الكثير من القضايا المحلية والإقليمية عبر تناوله للظروف التاريخية والموضوعية ومساهمة التمازج العرقي والثقافي في قيام العديد من المدن والدويلات والمحطات المهمة، على سبيل المثال تمبكتو وسنار ودارفور التي ساهمت بفعالية لتأسيس وتأمين ودعم طريق الحج بداية باستقبال الحجيج، وإكرام العلماء والمهاجرين، وتجهيز المحمل (كسوة الكعبة).

وللتوثيق وسائل متعددة اهمها :

إنتاج المسلسلات والأفلام وهي عملية إبداعية متكاملة الأصل فيها القدرة الإبداعية التي تعمل علي تحويل الأفكار والمادة العلمية وتجسيدها إلى مجموعة من الصور المتحركة والأصوات ووضعها في قالب فني شيق الهدف منة توصيل الفكرة والأهداف إلى الجمهور بطريقة سهلة وميسرة وسلسة تخاطب القلب والوجدان مباشرة والتأثير عليهما . وحتى يكتمل هذا العمل الفني الكبير يحتاج إلي تكاتف خبرات عديدة ووعي وإدراك بالرسالة والفكرة المراد توصيلها وأيضا يحتاج إلى التخطيط والإعداد الجيد والهندسة والتصوير بكل أنواعه وفنون الإضاءة وترتيب الأصوات والماكياج والأزياء والإكسسوار والممثل المبدع المحترف والتسويق . وطرق الحج الإفريقية غنية جداً بالمادة العلمية والفنية والصور الدرامية والوصف الحي والفنون والآداب الحضاري وتفاعل العادات والتقاليد والتنوع الثقافي والقبلي والجهوي المختلف باختلاف الألسن واللهجات ولون البشرة . كل هذا التنوع البشري انصهر بالتعاليم الإسلامية .

وكون قبيلة الإسلام الواحدة على طريق الحج المتجه إلى قبلة واحدة إلى بيت الله في امتداد تشابكي وتفاعل إنساني مدهش لا يوجد له مثيل في العالم .

بالأمس واليوم نسمع نشاهد مسلسلات وأفلام عالمية عن الطريق إلى سمرقند وطريق الحرير والطريق إلى جوهانسبيرج لكننا لم نشاهد مسلسلاً ولا حتى فلماً واحداً وثائقياً عن أعظم الطرق المقدسة طريق الحج الإفريقي !!!؟

واليوم أصبح التلفزيون والانترنت واليوتيوب الوسائل الحديثة المستخدمة والأكثر شيوعياً لسهولة اقتنائها وتوفرها داخل المنازل والسيارات فقد اهتم كثير من العلماء والمفكرين ورجال الأعمال وساسة المجتمع ببلورة الرأي وإعداد الأفكار والأهداف عبر الأفلام والمسلسلات والإعلانات الفنية لقدرتها على التأثير على المجتمع أكثر من الوسائل المقروءة وبثها على التلفزيون لأنه الأكثر والأوسع انتشاراً في القرى والأرياف والمدن واستهدفوا به كل طبقات المجتمع من علماء ومثقفين وعمال ومهندسين والأطفال والأسر داخل المنازل.

فالواقع الذي نعيشه الآن يؤكد ضعف المستوى الموضوعي والفني للمسلسلات التلفزيونية العربية والإسلامية ويقل فيها بشكل واضح الاهتمام بالموضوعات الدينية والثقافية ويزداد فيها التركيز علي الموضوعات السلبية . ونحن نمتلك المادة العلمية المتنوعة والطبيعة والمواد المحلية والجمهور المشاهد وكل عناصر الإنتاج لنعلو بها ونظهر عظمة المسلم الإفريقي وقهره للصعاب والصراع مع الطبيعة والنوازع البشرية على طول الرحلة الطويلة على طريق الحج للوصول إلى بيت الله الحرام تعظيماً لشعيرة الحج.

المراجع:

- باوا مبا – حجاج على الدوام
- محمد بلو بن عثمان دانفوديو (١٩٩٦) إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور
- محمد بن عمر التونسي (١٩٥٩) تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان
- عبدالله عبدالماجد إبراهيم (٢٠٠٤) الإعلام بالأعلام سيرة علماء السودان من تمبكتو إلى أم درمان – بيروت.
- بروفسور الأمين أبومنقة الجذور الفقهية لهجرة أمير المؤمنين الطاهر الأول من سكتو
- الدراما التلفزيونية للدكتور عبدالعزيز الحسن – القاهرة